

الفصل الحادي والخمسون

فقر وغنى وأفراح وأتراح

وبين الجاهليين أناس عرفوا بالغنى وبالثراء وبكثرة المال ، كالذي ذكرته عن بعض رجال مكة . فقد كان بينهم رجال متخمون شبعون ، سكنوا بيوتاً حسنة ، زينوها بأثاث جيد وثير ، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجليلة المستوردة من بلاد الشام واليمن ، وأكلوا أكالات الأعاجم وتفتنوا في الطبخ ، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلور . وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية . كما كانت لهم قوافل خاصة بهم ، تأتي اليهم بأرباح طيبة . ومنهم من استغل ماله بالربا وبامتلاك الأرض لاستغلالها ، كما فعلوا بالطائف ، الى غير ذلك من وسائل اتبعوها في جمع المال .

وكان منهم أناس ذور حس وعاطفة ، فعطفوا على المحتاج وأطعموا الناس ، رقة بحلمهم أو طلباً للشهرة والاسم . فهم جماعة محسنة على كل حال وكان بينهم من لم يكن له قلب ولا حس ، فلم يعرف محتاجاً أو فقيراً ولم يفهم معنى للإحسان على الفقير . فاشتط وابتى وقسى في رباه ، ولم يتساهل فيه . ومنهم من أكل أموال اليتامى ومنع الماعون . واذا باع أنقص في المكيال ، ليزيد في ماله . وفي القرآن الكريم آيات في وصف حال هؤلاء الأغنياء ، وتقريع لهم وتوبيخ على ما فعلوه : (فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين)^١ . أي يدفع

١ سورة الماعون ، الآية ٢ ، وما بعدها .

اليتم عن حقه ، ويقهره ويظلمه . وأنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ، ويقولون : (إنما يحوز المال من يظن باللسان ، ويضرب بالحسام)^١ .

وكان منهم من يبخل بماله فلا يفتق منه على المحتاجين والمسكين . وكان منهم من يعتذر عن بخله وحرصه ، فيقول : (أنطعم من لو شاء الله أطعمه !) فتزلت هذه الآية : (ولا يحض على طعام المسكين) فيهم ، (وتوجه الستم اليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا)^٢ .

وكان بين الجاهليين فقراء معدمون مدقعون لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئاً . وكانت حالتهم مزرية مؤلمة . منهم من سأل الموسرين نوال إحسانهم ، ومنهم من تحامل على نفسه تكراً وتعففاً ، فلم يسأل غيباً ولم يطلب من الموسرين حاجة ، محافظة على كرامته وعلى ماء وجهه ، مفضلاً الجوع على الشبع بالاستجداء . حتى ذكر ان منهم من كان يختار الموت على الدنيا . والدنية ، أن يذهب الى رجل فيتوسل اليه بأن يوجد عليه بمعروف . ومنهم من اعتقد . والاعتقاد أن يعلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً . وكانوا يفعلون ذلك في الجذب . قيل : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم باباً وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً^٣ .

وكان بعض تجار مكة إذا أفلسوا أو ساءت حالتهم ، خرجوا الى البادية سرّاً ، وأقاموا هناك حتى يهلكوا جوعاً . خشية معرفة وقوف رجال مكة على حالهم ، واشفاقاً على أنفسهم من التوسل بالأغنياء لمساعدتهم^٤ . فالموت على هذه الصورة أسهل عندهم من الإستجداء . روي (عن ابن عباس) في تفسير (لإيلاف قريش) ، قوله : (وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة ، جرى هو وعياله الى موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خباء فأتوا)^٥ .

وكان منهم من رضي وقنع بالدون من المعيشة ، فعاش في فقر مدقع. والدقع

-
- ١ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠ / ٢١١) .
 - ٢ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠ / ٢١١) .
 - ٣ تاج لعروس (٢ / ٢٤٦) ، (عقد) .
 - ٤ السيوطي ، الدر المنثور (٤ / ٣٩٧) .
 - ٥ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠ / ٢٠٤) ، تفسير سورة قريش .

الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر والصلوق بالأرض من الفقر والجوع . فهم ينامون على التراب ويلتحفون السماء . والدوقعة الفقر والذل ، وجوع أدقع وديقوع شديد^١ . وهم مثل (بنو غبراء) في الفقر والحاجة ، أولئك الذين توسدوا الغبراء واتخذوا التربة فراشاً لهم ، لعدم وجود ملجأ لهم يأوون إليه ، ولا مكان يحتمون به .

ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم فكانوا يأتمدون (الصليب) وهو الودك . ودك العظام . يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها ، ثم يجمعون الودك الذي يخرج منها ليأتمدوا به . وقد عرفوا بـ (أصحاب الصلب) . ولما قدم الرسول مكة (أتاه أصحاب الصلب الذين يجمعون العظام إذا لحب عنها لحماً فيطبخونها بالماء ويستخرجون ودكها ويأتمدون به)^٢ .

ولم يكن في استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلاته بالنسبة لهم . لذلك عدّ أكله من علائم الغنى والمال^٣ . وكان الذي يطعم الخبز والتمر يعد من السادة الكرام . وكان أحدهم يفتخر بقوله (خبزتُ القومَ وتمرهم) ، بمعنى أطعمتهم الخبز والتمر^٤ . وقد افتخر (بنو العنبر) بسيدهم (عبدالله بن حبيب العنبري) ، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن ، بل كان يأكل الخبز . فكانوا إذا افتخروا قالوا : منّا آكل الخبز . وكانوا يقولون (أقرى من آكل الخبز)^٥ لأنه كان جواداً . وذكر أن (كسرى) حين سأل (هوزة بن علي الحنفي) عن غذائه بيده ، قال له هوزة : الخبز . (فقال كسرى : هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر)^٦ .

وكان منهم من لا يستطيع شراء الملابس ليلبسها ، فيسّر جسمه بالأسمال البالية وبالجلود ، ويعيش متضوراً جوعاً . وقد ذكر أن الفقراء من الصحابة كانوا لا يملكون شيئاً ، ويتضورون جوعاً ، وينامون في صفة المسجد ، يرزقهم الرسول

- ١ تاج العروس (٣٣٠/٥) ، (دقع) .
- ٢ تاج العروس (٣٣٧/١) ، (صلب) .
- ٣ بلوغ الارب (٨٧/١) .
- ٤ تاج العروس (٣٢/٤) ، (خبز) .
- ٥ بلوغ الارب (٨٧/١) .
- ٦ بلوغ الارب (٨٧/١) .

من رزقه ، تنبعث منهم روائح كريهة ، من عدم الغسيل . ويلعب القمل شعرهم ، وينتقل على أجسامهم حيث يشاء .

ويظهر أن بعض زعماء مكة قد شعر بخطورة ظاهرة انتشار الفقر بمكة ، وسيتركه الاعتقاد من أثر في مجتمعها ، فعمل على معالجة مشكلة الفقر والجوع والتسول ، حفظاً لمصالح الأغنياء على الأقل. فهم إن تركوا الفقر ينتشر ويتفشى ولم يعملوا على معالجته ، تطاول الفقراء منهم على أموال الأغنياء ، وقاموا عليهم وأرغموهم على أخذ أموالهم أو على أن يساهموهم فيه . أضف إلى ذلك ما سيحدث اعتداء الفقراء على أموال الأغنياء من خوف ، ومن فزع في نفوس أهل هـ المدينة المتاجرة ، لذلك سعوا لاقناع تجار المدينة على إنصاف الفقراء والمحتاجين ومساعدتهم للتخفيف من شدة الجوع والفقر .

ويظهر أن المخمصة ، كانت شديدة ، شدة حملت البعض على السطو = أموال الناس وعلى سرقة ما يجدونه أمامهم . ففزع من ذلك أهل مكة ، و زعمائها على التفكير في اتخاذ أقسى العقوبات في حق السارق ، فكان أن - (الوليد بن المغيرة) يقطع يد السارق ، ذكر انه كان أول من حكم يقطع السارق في الجاهلية^١ فصار القطع سنة عندهم .

وكان أن نادى (هاشم) ، وهو (عمرو بن عبد مناف) لإنصاف الفقراء والمحتاجين وتقديم المعونة لهم ، حتى يصير فقيرهم كالكافي، فما ربح الغني آخر منه نصيباً ليكون للفقراء^٢ . وبذلك يخفف من حدة وطأة الفقر في هذه المد المتاجرة .

وذكر في تعليل دعوة (هاشم) إلى إنصاف الفقراء ومساعدتهم ، انه (سيداً في زمانه ، وله ابن يقال له : أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غداً نعتقد . فدخل أسد على أمه يبكي وذكر ما قاله تربيته .. فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق ، فعاشوا أياماً . ثم إن تربيته أتاه أيضاً ، فقال : نحن غداً نعتقد ، فدخل أسد على

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (١٦٠/٦)
٢ والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠٥/٢٠)

بيكي ، وخبره خبر تربه ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : انكم أحدثتم حدثاً تقولون فيه وتكفر العرب ، وتذلون وتعزّ العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتقاد يأتي عليكم . فقالوا : نحن لك تبع . قال : ابتدئوا بهذا الرجل -- يعني أبا تراب أسد - فأغنوه عن الاعتقاد ، ففعلوا . ثم انه نحر البدن ، وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد ، وأطعم الناس ، فسمي هاشماً . وفيه قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

تم جمع كل بني أب علي رحلتين : في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو اب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزلوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) بصنيع هاشم (وآمنهم من خوف) أن تكثر العرب ويقلوا ^١ .

وورد أن (حكيم بن حزام) كان يقاسم ربحه من تجارته الفقراء وأهل الحاجة والمحاويج ^٢ . وذكر أن قريشاً كانت تراحم فيما بينها وتتواصل . وأن تفسير (إبلافا قريش) ، هو (تراحم قريش وتواصلهم) . فالإبلافا التراحم والتواصل .

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠٥/٢٠) ، وينسب البيت :
والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
الى مطرود بن كعب ، راجع البكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، الغالي ، أمالي (٢٤١/١) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٥٤٦/١٠) ، طبعة طهران) ، اليعقوبي ، (٢٠٢/١) ، البلاذري ، انساب (٥٨/١) ، ابن العربي ، محاضرات الاسرار (١١٩٠/٢) ، تاريخ الخميس ، للدياربكري (١٥٦/١) ، المرتضى ، أمالي (١٧٨/١ وما بعدها) .
٢ الزبير بن بكار ، نسب قريش (٣٦٧/١) ، رقم (٦٤٤) .

وذكر أن قريشاً كانوا (يتفحصون عن حال الفقراء ويسدّون خلة المحاويج)^١ .
ويظهر أن هذا إنما حدث بفعل (هاشم) وبتنظيمه وجمعه وبدعوته تلك . فصار
أصحاب القلوب الرقيقة يخرجون منذ يومئذ من دخلهم نصيباً يجمعونه ويوحدونه ،
لينفقوا منه على من به حاجة من أهل مكة ومن الغرباء .

والإيلاف هو التطبيق العملي لدعوة (هاشم) إلى إنصاف الفقراء والمساكين
والمحاويج . فبعقد (الإيلاف) وإجماع قريش على تلبية دعوة هاشم بإخراج نصيب
من أموالهم يخصص لمساعدة المحتاج ، تمكن (هاشم) من تطبيق دعوته تطبيقاً
عملياً ، ومن مساعدة المحتاجين . حتى صار عمله سنة لمن جاء بعده . فحسن حال
المحتاجين ، ونعش فقراء مكة . يؤيد ذلك ما نجده من قول (ابن حبيب) :
(أصحاب الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها)^٢ .

والرفادة والسقاية ، هما من ثمرات دعوة (هاشم) ، فالرفادة ، هي إقراء
ضيوف مكة وإطعام المحتاجين من أهلها . والسقاية إسقاءهم الماء ، والنيذ واللبن .
فلم تقتصر السقاية على تقديم الماء بلا ثمن إلى العطشان والمحتاج إلى الماء . بل
اشتملت على تقديم اللبن والنيذ بل والعسل كذلك إلى المحتاج بلا ثمن . وقد
ذكر أن (سويد بن هرمي بن عامر الجمحي) ، كان (أول من وضع الأرائك
وسقى اللبن والعسل بمكة)^٣ . وأن (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) : المعروف
بـ (زاد الركب) ، و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) ،
(كانا يسقيان العسل بمكة بعد سويد بن هرمي)^٤ . وكل هذه الأعمال ، هي
من الأعمال الخيرية النافعة ، التي تدل على نفس طيبة ، تسعى للتخفيف عن مصعب
الناس ، وعن رغبة في مساعدة الفقراء والمحتاجين . فصار في وسع من يقصد
البيت الجلوس على أرائك ليرتاح عليها ، كما صار في وسعه الحصول على ماء أو
سقاء لبن أو ماء معسل ، أي محلى ، مجاناً إن لم يتمكن من دفع الثمن .

وفي حلف (انفضول) دعوة لـ (مواسة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول
أموالهم)^٥ ، وذلك لمنع الظالمين من أهل مكة من اغتصاب أموال أهل الفاقة

-
- ١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (١٦٩/٣٠) ، (طبعة بولاق) .
 - ٢ المحبر (١٦٢) .
 - ٣ المحبر (١٧٦ وما بعدها) .
 - ٤ المحبر (١٧٧) .
 - ٥ ابن هشام (١٤١/١) .

والغرباء ممن يرد الى المدينة وليس لهم من جار ومعين ، ومن أهل مكة كذلك .
فهو توثيق وتتمة لعمل (هاشم) .
ونجد هذه الدعوة الانسانية في مساعدة الجار والفقير في الشعر : في مثل قول
الشاعر :

بيتون في المشى ملاء بطونهم وجاراتهم غرثى بيتن خائصا^١

وهو بيت يمثل المثل الجاهلية العليا التي تجسمت في الجوار وفي المروءة والاحسان
والحمية وأمثال ذلك .
ونجد مثل هذه التزعة في قول الشاعر :

هنالك إن يُستجلبوا المال يُنجبوا وإن يسألوا يُعطوا وإن ييسروا يُغفلوا
على مكربهم رزق من يعذبهم وعند المُقَلِّين السباحة والبذل

وفي قول (الحيرتق بنت هفان) ترثي زوجها (عمرو بن مرثد) وابنها
(علقمة بن عمرو) وأخويه حسان وشرحيل ، حيث قالت في جملة ما قالته :

والخالطين نَحِيَّتَهُم بنضارهم وذوي الغنى منهم بلدي الفقرا^٢

والنحيت الدخيل في القوم ، والنضار الخالص النسب^٣ . فهم قوم كرام ، لم
يفرقوا بين الدخيل والأصيل ، ولا بين الغني والفقير ، فقال الدخيل ما عند
الأصيل ، وشارك ذو الفقر والمدقعة الغني في ماله ، وهو أعز شيء
عند الانسان ، لأنه أبى أن يستأثر به ، وجاره فقير ليس عنده ما يسد حاجته .
فمجتمعهم مجتمع (خليط) ، و (الخليط : القوم الذين أمرهم واحد) ، والمشارك
الحقوق . وفي الحديث : الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار .
وأراد بالشريك : المشارك في الشروع^٤ .

ونجد فكرة مساعدة الفقير ، والاستهانة بالمال بانفاقه على المعوزين ، والإنعام
به على الفقراء ، في أبيات أخرى في مثل :

-
- ١ الامالي للقاتي (١٥٨/٢) .
 - ٢ الامالي للقاتي (١٥٨/٢) .
 - ٣ ويروي لحاتم الطائي . ناج المروس (٥٩١/١) (نحت) .
 - ٤ ناج المروس (١٣٢/٥) ، (خلط) .

والخالطين غنيهم بفقيرهم والمنعمين على الفقير الرمل^١
وفي مثل قول الأعشى :

وأهان صالح ماله لفقيرها وآسى وأصلح بينها وسعى لها^٢
وقول الشاعر عمرو بن الاطنابة :

والخالطين حليفهم بصريحهم والباذلين عطاءهم للسائل^٣

وأرى أنّ في ورود لفظة (الخالطين) في هذه الآيات ، بمعنى خلط المال ،
وتخصيص الأغنياء نصيباً من أموالهم للفقراء ، دلالة على أنّ من الجاهليين الأغنياء
من كان قد وضع في ماله حقوقاً للمحتاجين ، بحيث صاروا كالمخالطين لهم في
مالهم ، وفي منزلة الشركاء لهم في المال . من دون إرغام لهم ولا إكراه ، أو
طمع في ثواب دينوي أو في عالم ما بعد الموت . وذلك غاية الجود والكرم .
وفي شعر للنعمان بن عجلان الأنصاري ، إشادة بعمل قومه الأنصار ، إذ
قسّموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين . فيقول :

وقلنا لقوم هاجروا : مرحباً لكم وأهلاً وسهلاً ، قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر^٤

ويذكرنا شعره هذا الذي افتخر فيه بقومه الأنصار بالمؤاخاة ، إذ آخى رسول
الله بين المهاجرين والأنصار . بعد مقدمه بخمسة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر .
فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتداء الإسلام إرثاً مقدماً على القرابة . ثم نسخ
التوارث بالمؤاخاة بعد بدر^٥ . والمؤاخاة هي (المخالطة) الجاهلية في صورة أخرى .
وقد كان بين الجاهليين من حبس الجبوس ، لتكون وفقاً على الفقراء والمحتاجين

-
- ١ الخالديان ، الاشياء والنظائر (٢٠/١) ، ديوان حسان (٣٠٨) .
 - ٢ ديوان الاعشى (٣٥/٣) .
 - ٣ الحماسة ، لابن الشجري (٥٦) .
 - ٤ الاصابة (٨٧٤٨) ، (٥٣٢/٣) . (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الاستيعاب (٢٩٨) ،
Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. VIII, Part II,
1965 p. 125.
 - ٥ امتاع الاسماع (٤٩/١) وما بعدها .

وأبناء السبيل . ومنهم من ساعد الفقراء والصعاليك بتقديم الخليل لهم للإغارة بها واكتساب الرزق عن طريق الغارات. كالذي روي عن (الريان بن حويص العبيدي) من أنه كان قد جعل فرسه (هراوة) موقوفة على الأعزاب من قومه . فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوجوا ، فإذا استفاد واحد منهم مسالاً وأهلاً دفعها الى آخر منهم ، فكانوا يتداولونها كذلك ، فضربت مثلاً ، فقيل : أعزّ من هراوة الأعزاب^١ . وذكر أنها جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة ، فتصدق بها على العزّاب ، يتكسبون عليها في السباق الغارات^٢ .

ومن تقاليد العرب مساعدة الضال والمنقطع والمغزب ، وهو الذي عزب عن أهله في إبله وانقطع عنهم . ومن ذلك ما ورد في الحديث : أنهم كانوا في سفرٍ مع النبي ، فسمع منادياً ، فقال : انظروا ستجدوه مغزباً أو مكثراً . والتعزب: الابتعاد عن الجماعات بسكنى البادية ، وقد نهى عن ذلك في الإسلام . كما أشير الى ذلك في حديث (ابن الأكوخ) لما أقام بالزبذة (أبو ذر الغفاري) ، قال له الحمجاج ارتددت على عقبيك تعزبت^٣ .

ومنهم من جعل في ماله صدقة يؤديها الى الفقراء على وجه القرية الى الألهة أو عن دافع انساني أو عن حب للظهور والفخر . ويقال لمن يتصدق على غيره (المصدق) . وهو عمل تطوعي ، يقوم به الإنسان اختياراً وتطوعاً ، لمساعدة المعوز والمحتاج .

و (ابن السبيل) هو (ابن الطريق) ، الذي قطع عليه الطريق ، ولا يجد ما يتبلغ به . والضيف المنقطع به ، فيجب أن يعطى ما يتبلغ به الى وطنه^٤ . وقد تتعرض السابلة الى لصوص الطرق ، يسلبونهم ما معهم ، وقد يأخذون حتى ملابسهم ، فيتعرض مثل هؤلاء للهلاك والأخطار ، حتى يتهيأ لهم من له شفقة ورحمة فيغيثهم بما يتمكن منه ، وقد يحملهم معه . وكان لفقير الكثير منهم ، يصعب عليهم دفع ديونهم ، ويماطلون في الأداء

-
- ١ تاج العروس (٢٨٠/١) ، (عزب) ، نهاية الارب (٤٤/١٠) وما بعدها ، (٤٦) ، العملة (٢٣٥/٢) .
 - ٢ العملة (٢٣٥/٢) وما بعدها .
 - ٣ تاج العروس (٢٨٠/١) ، (عزب) .
 - ٤ تاج العروس (٣٦٦/٧) ، (سبيل) .

حتى أنهم كانوا اذا رأوا الهلال ، قالوا : لا مرحباً بمحل الدين ومقرب الآجال^١ .
وذلك لأنهم كانوا يتواعدون في دفع الديون على مطلع القمر^٢ .

ومما زاد في فقر بعضهم ، شرب الخمر والمقامرة . فكان بعضهم يفني ماله
في شرب الخمر ، (وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزياً
سليماً ، ينظر الى ماله في يدي غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً)^٣ .
فعلوا ذلك أملاً في التخلص من ألم الفقر والحُرمان بالجوء الى الخمر لطمس ألم
الفقر والذل ، والى القمار ، أملاً في الكسب والربح ، فزادوا بذلك فقرهم ،
وعرضوا أنفسهم الى الخسارة .

الوَاد :

والوَاد من ذبول الفقر . وقد جاء ذكره في الآية : « وإذا المؤمنة سئلت :
بأي ذنب قُتِلَتْ »^٤ . والوَاد على ما يذكر علماء التفسير وأهل الأخبار هو دفن
البنات وهنّ أحياء ، وذلك خوفاً من العار أو لوجود نقص فيها أو مرض أو
قبح كأن تكون زرقاء أو شيباء أو يرشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من
الصفات التي كان يتشام منها العرب^٥ ، أو خوفاً من الفقر والجوع ، أو مخافة
العار والحاجة^٦ .

ورجع (القرطبي) أسباب الوَاد لخصيتين : (إحداهما ، كانوا يقولون إن
الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية ، إمّا مخافة الحاجة والإملاق
وإمّا خوفاً من السبي والإسترقاق)^٧ . وذكر غيره أن سنين شديدة كانت تنزل
بالناس تكون قاسية على أكثرهم ، ولا سيما على الفقراء ، فيأكلون (العلهيز)

-
- ١ تاج العروس (٢٨٦/٧) ، (حلل) .
 - ٢ تاج العروس (٧٢/٩) ، (نجم) .
 - ٣ تفسير الطبري (٢١/٧ وما بعدها) .
 - ٤ سورة التكوير ، الآية ٧ .
 - ٥ بلوغ الأرب (٤٣/٣) ، اللسان (٤٤٢/٣) ، (وَاد) .
 - ٦ تاج العروس (٥٢٠/٢) ، (وَاد) . اللسان (٤٤٢/٣) .
 - ٧ القرطبي ، الجامع (٢٣٢/١٩) .

وهو الوبير بالدم، وذلك من شدة الجوع^١ . فهذا الفقر وهذه الفاقة وذلك الإملاق، كل ذلك حملهم على وأد البنات حذر الوقوع في الغواية ، فتلحق بالسببة بأهل البنت وبعشيرتها وقيانتها . وذكر أيضاً أن من جملة أسباب الواد وجود تقصص في المؤودة أو مرض أو قبح ، كأن تكون زرقاء أو شيباء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشائم منها العرب^٢ .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان بعض العرب كانوا يتشائمون من البنت الزرقاء أو الشيباء ، أو الكسحاء ، فكانوا يثدنون من البنات من كانت على هذه الصفة ، ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة . وذكروا ان والد (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، وهي عمّة (وهب) ، والد (آمنة) أم الرسول ، أرسل بها الى (الحجون) لوأدها ، للصفة المذكورة ، ثم تركها في قنصة يروونها ، وصارت كاهنة شهيرة^٣ . فسبب الواد عند هؤلاء ، هو هذه العقيدة القائمة على التشاؤم من البنت الزرقاء والشيباء .

ويذكرون انهم كانوا يحفرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة ، أو انهم كانوا يقولون للآثم بأن تهبء ابنتها للواد وذلك بتطبيخها وتزيينها . فإذا زينت وطبخت، أخذها أبوها الى حفرة يكون قد احتفرها ، فيدفعها فيها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة بالأرض . وذكر أيضاً ، ان بعضهم كان يفرقها ، أو يقوم بذبحها ، ليتخلص بهذه الطرق منها^٤ .

وذكر ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت ، فأراد أن يستحيها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والنعمة في البادية ، وإن اراد قتلها تركها حتى اذا كانت سادسية فيقول لأمها : طيببها وزينبها حتى أذهب بها احماها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البشر ، فيقول لها انظري فيها ثم يدفنها من خلفها ويهيل عليها التراب ، حتى تستوي البشر بالأرض . وروي عن

-
- ١ الكامل (٢٨٨/١) .
 - ٢ نهاية الارب (١٢٦/٣) وما بعدها ، بلوغ الارب (٤٣/٣) .
 - ٣ السيرة الحجابية (٥٠/١) ، مطبعة الاستقامة) ، الفاعرة (١٩٦٢) ، (٥٣/١) ، (المكاة السجارية) ، (القاهرة) ، (باب تزويج عبد الله) .
 - ٤ المساف (١٨٨/٤) ، سورة النابير ، تاح العروس (٥٢٠/٢) ، (واد) ، بلوغ الارب (٤٢/٣) وما بعدها ، (٥٢) .

ابن عباس انه قال : كانت الحامل اذا قربت ولادتها حضرت حفرة فحضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وردت التراب عليها ، واذا ولدت ولداً حبسته^١ . ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت : تموت والقبر صهر^٢ ضامن زميت^٣

الزميت الوقور^٤ .

وفاعل العمل هو (الوائد) والبنت المدفونة وهي حية (الموؤودة) ، والعادة (الوَاد) .

ويرجع بعض أهل الأخبار تأريخ الواد الى ايام (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فيقولون إن (بني تميم) منعوا الملك ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم ، فجرد الملك حملة عليهم كان أكثر رجالها من بني بكر بن وائل ، أوقعت بهم وسبت ذرارهم . فلما ارضوا الملك وكتّموه في الدراري ، (حكّم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها، ردت عليه ، فاختلفن في الخيار. وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم المنقري، فاختارت سايبها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تولد في التراب ، فواد بضع عشرة بنتاً. وبصنيع قيس بن عاصم وإيجاده هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات^٥ . ورجع بعض الأخباريين الواد الى قبيلة ربيعة . زعموا أن بنتاً لرئيسها وسيدها وقعت أسيرة في أيدي قبيلة أغارت عليها : فلما عقد الصلح ، لم تشأ البنت العودة الى بيتها ، فاختارت بيت أسرها ، فغضب رئيس ربيعة لذلك ، واستنّ هذه السنة ، وقلدته بقية العرب حتى فشت بين القبائل^٦ . وهي رواية قريبة في مضمونها وفي فكرتها

- ١ بلوغ الأرب (٤٣/٢) ، تفسير البيضاوي (٦٧٠/١) ، تفسير القاسمي (١٧/٦٠٦٩ وما بعدها) ، تفسير الشربيني (٤٧١/٤ وما بعدها) ، روح المعاني (٣٠/٢٨ وما بعدها) .
- ٢ القرطبي ، الجامع (٢٣٣/١٩) ، الطبرسي ، مجمع البيان (٤٤٤/١٠) ، طبعة طهران (٤٥/١٣ وما بعدها) ، (بيروت) ، الكشاف (٣١٥/٣) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) ، (٣٥٦/٤) .
- ٣ بلوغ الأرب (٤٢/٣ وما بعدها) ، الاغانى (١٥٠/١٢) ، تفسير الطبري (٤٥/٣٠ وما بعدها) ، صبح الاعشى (٤٠٤/١) ، (اختارت صاحبها وعمرو بن المشمرج) ، نهاية الأرب (٩٢٧/٣) .
- ٤ بلوغ الأرب (٤٣/٣) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) .

من الرواية الأولى . والفرق بين الروایتين هو في تسمية القبيلة والأشخاص .
 وورد أن (قيس بن عاصم) التميمي ، جاء الى النبي ، فقال : إني وأدت
 ثمانى بنات في الجاهلية . قال فأعتق عن كل واحدة منهن بدنة^١ . أو : فأعتق
 عن كل واحدة منهن رقبة^٢ .

ويذكر الأخباريون أن (الواد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان
 يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الإسلام ، وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم ،
 فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الإسلام)^٣ . وقبيلة كندة وقيس وهذيل وأسد وبكر
 ابن وائل من القبائل التي عرف فيها الواد ، وخزاعة ، وكنانة ، ومضر ، وأشدهم
 في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الاكفاء فيهن^٤ . وذكر بعض
 أهل الأخبار ان الواد كان في تميم ، منهم انتقل الى غيرهم . وقيل : إنه كان
 في تميم ، وقيس ، وأسد ، وهذيل ، وبكر بن وائل ، وهم من مضر^٥ .
 فهي عادة تفشت في قبائل مضر خاصة . وقيل لأنها كانت في غير مضر كذلك .
 وذكر انها كانت في ربيعة ومضر^٦ ، اي في العرب الذين تغلبت الأعرابية على
 حياتهم .

وذكر (عكرمة) في تفسير الآية : (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً
 بغير علم) ، انها نزلت فيمن يثد البنات من ربيعة ومضر . كان الرجل يشترط
 على امرأته ، ان تستحي جارية وتثد اخرى . فإذا كانت الجارية التي تواد غدا
 الرجل او راح من عند امرأته ، وقال لها : انت علي كظهر امي إن رجعت
 اليك ولم تثديها ، فتخذ لها في الأرض خدّاً وترسل الى نسايتها فيجتمعن عندها ،
 ثم يتداولنها حتى إذا ابصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب^٧ .
 اما ان اول من سنّ الواد في العرب ، هو (قيس بن عاصم المنقري) ،

- ١ تفسير الطبري (٤٦/٣٠) ، (بولاق) .
- ٢ القرطبي ، الجامع (٢٣٣/١٩) ، ابن كثير ، تفسير (٤٧٨/٤) .
- ٣ بلوغ الأرب (٤٢/٣) .
- ٤ القرطبي ، الجامع (١١٦/١٠) وما بعدها ، نهاية الأرب (٨٣/١٨) ، الكامل
 (٢٨٨/١) .
- ٥ الكامل (٢٨٨/١) .
- ٦ تفسير الطبري (٣٨/٧) .
- ٧ تفسير الطبري (٣٨/٨) .

للسبب المذكور ، فدعوى من الدعاوى المألوفة عن اهل الأخبار ، وقصة من القصص الذي كانوا يضعونه احياناً حين يقفون عند امر غريب عليهم ، ليس لهم علم به ، فكانوا يوجدون قصصاً في تفسيره وتعليقه ، وقفنا على كثير منه . والظاهر ان وأد (قيس) لبنات من بناته ، ووجوده في تميم خاصة بعد ان خفت عند بقية العرب ، حمل اصحاب الأخبار على ارجاع اصله واساسه الى (قيس) ، مع انهم يذكرون حوادث عن الوأد ، مثل ما ذكروه عن (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، تتقدم في الزمن على (قيس) . والوَأد عند العرب اقدم منه ، وربما يعود الى ما قبل الميلاد . وفي القرآن الكريم : (ولذا بُشِّرْ اِحْدَهُمْ بِالْاُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ بِهِ . اَمْسِكْهُ عَلٰى هَوْنٍ اَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ اَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) . وفي هذه الآية وصف للحالة النفسية التي كانت تعتور الأب عند إخباره بميلاد بنت له ، وشرح لبعض الأسباب التي كانت تحمل الآباء على وأد البنات . ويروى ان بعض الجاهلية يتوارى في حالة الطلق ، فإن أُخْبِرَ بِذِكْرِ ابْتِهَاجٍ اَوْ بِاُنْثَىٰ حَزَنٌ ، وبقي متوارياً ايأماً يدبر ما يصنع أيتركه ويريبه على ذلك ، ام يدسه في التراب ، بأن يثده ويدفنه حياً حتى يموت ، ام يهلكه بأمر آخر ، بأن يلقيه من شاهق . روي ان رجلاً قال : يا رسول الله والسني بعثك بالحق ما اجد حلاوة الاسلام منذ اسلمت . وقد كانت لي في الجاهلية بنت وأمرت امرأتي ان تزينها وأخرجتها فلما انتهيت الى واد بعيد القعر ألقيتها ، فقالت : يا ابنتي قتلتي ! فكلمنا ذكرت قولها لم ينفعني شيء . فقال الرسول : ما في الجاهلية فقد هدمه الاسلام ، وما في الاسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يفرقها وبعضهم يذبها^١ .

وقد ذكر العلماء في تفسيرهم : « وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله إفتراءً على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين »^٢ . أن الله (أخبر بخسرانهم لوأدهم البنات وتجرعهم البحيرة وغيرها بعقولهم ، فقتلوا أولادهم سفهاً

١ النحل ، الآية ، ٥٨ ، تفسير الطبري (٨٣/١٤ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٥١/٢ وما بعدها) .

خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشوا الإملاق ، فأبان ذلك عن تناقض رأيهم)^٣ .

قال (القرطبي) : « إنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الإملاق ، كما ذكر الله عزّ وجل في غير هذا الموضع . وكان منهم من يقتله سفهاً بغير حجة منهم في قتلهم ، وهم ربيعة ومضر ، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ، فألقوا البنات بالبنات . وروي أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك تكون محزوناً ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت . فقال له : أخبرني عن ذنبك : فقال : يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فتشفت إلي امرأتي ان اتركها فتركها حتى كبرت وادركت ، وصارت من اجمل النساء فخطبوها ، فدخلني الحمية ولم يحتمل قلبي ان ازوجها او اتركها في البيت بغير زواج ، فقلت للمرأة : إني أريد ان اذهب الى قبيلة كذا وكذا في زيارة اقربائي فابعثها معي ، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي ، واخذت علي الموائيق بالألوان اخونها ، فذهبت الى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية إني أريد ان ألقىها في البئر فالترمتني ، وجعلت تبكي ، وتقول : يا ابي ايش تريد ان تفعل بي ؟ فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا ابي لا تضيع امانة أمي ! فجعلت مرة انظر في البئر ومرة انظر اليها فأرحها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا ابي ، قتلني . فكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، وقال : لو امرت ان اعاقب احداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك »^٣ .

والفاقة والحمية واعتقاد بعض منهم ان الملائكة بنات الله ، فيجب إلحاق البنات بالبنات ، هي عوامل دفعت بالعرب الى الوأد . فهي بين عامل اقتصادي نص عليه في القرآن الكريم ، وعامل اجتماعي ، هو الحمية ، وخشية لحوق العار بالانسان

١ الانعام ، الاية ١٣٩ وما بعدها .

٢ القرطبي ، الجامع (٩٦/٧) ، تفسير الخازن (١٦٣/٣ ، ٣٥٦) .

٣ القرطبي ، الجامع (٩٧/٧) .

من السبي والغارات وعامل ديني ، يرجع الى رأي في دين . لقد تعرض (قتادة) الى قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » ، فقال : « هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السب والفاقة ويغزو كلبه . وقوله : وحرموا ما رزقهم الله ... الآية وهم أهل الجاهلية جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشياطين في أموالهم »^١ . ولكن أغلب الوأد هو عن العامل الأول ، وهو الخشية من العيلة والفقر والإملاق . وهو ما نُصّ عليه في الآيات المتعلقة بالوَأد وبقتل الأولاد^٢ . وورد أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهن أحياء . خصوصاً كندة ، خوف العار ، أو خوف الفقر والإملاق^٣ .

ومن النساء من تكون خصية في ولادة البنات ، فيجلب لها هذا الخصب هجر زوجها لها وفراره منها ومن رؤية بناته . محدثنا الأصمعي أن امرأة ولدت لرجل بنتاً سميتها الذلفاء ، فكانت هذه البنت سبباً في هرب الرجل من البيت ، فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا يظلّ في البيت الذي يلينا ؟
يُحرد أن لا نلدَ البينا وإنما نأخذ ما يعطينا^٤

ومثل تلك المرأة المسكينة كثير من النساء هجرهن أزواجهن لكثرة ما كن يلدن لهم من البنات ، ولسان حالهن يكرر كلمات أم الذلفاء .
ومكة جبل يقال له (أبو دلامة) كانت قريش تئد فيه البنات^٥ . وذكر أن هذا الجبل يطل على (الحجون) . وقيل كان الحجون هو الذي يقال له :

١ تفسير الطبري (٣٨/٨) .
٢ تفسير الطبري (٥٧/١٥) ، القرطبي ، الجامع (٢٥٢/١٠) .
٣ السيرة الحلبية (٥٣/١) ، (باب تزويج عبد الله) .
٤ ونسبت هذه الابيات الى امرأة أبي حمزة الضبي ، الذي هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها فرارا من زوجته التي ولدت له بنتا ، وقد وردت على هذه الصورة :
ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما تأخذ ما يعطينا ونحن كالارض لزارعينا
نبت ما قد زرعه فينا

بلوغ الارب (٥١/٣) ، البيان والتبيين (١٠٤/١) ، (١٨٦/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، روح المعاني ، للالوسي (١٥٣/١٤) ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .
٥ المستطرف (٧٧/٢) .

أبو دلامة^١ .

ورود في القرآن الكريم ما يشير الى قتل بعض الجاهليين أولادهم خشية الإملاق وخوف الفقر . وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزلت الآيات : (ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً)^٢ . و (كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ، ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون)^٣ . و (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله اقتراءً على الله ، قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين)^٤ . و (قل : تعالوا اتل ما حرّم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم)^٥ . وظاهر لفظ الآيات النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً مخافة الفقر والفاقة^٦ .

وذكر ان المراد من كلمة (اولادكم) البنات ، وان المقصود بذلك الوأد^٧ . أي وأد البنات ، لا قتل الأبناء . وذهب بعض العلماء الى ان المراد بها الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً . (فقد كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن احدهم ، كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبدالله)^٨ . فنحن أمام هذه الآيات تجاه موضوعين : وأد البنات وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين . وأد البنات للأسباب المذكورة الواردة في كتب التفسير والحديث ، وقتل الأولاد للأسباب المذكورة في تلك الكتب أيضاً ، وفي كلتا الحالتين نتيجة واحدة ، هي القضاء على حياة انسان .

وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين هو أقل استعمالاً من وأد البنات بكثير . ويظهر انه كان عن عامل ديني في الأغلب ، كما يتبين ذلك من قصة إقدام

-
- ١ اللسان (٢٠٥/١٢) ، (صادر) ، (دلم) .
 - ٢ الاسراء ، الآية ٣١ ، تفسير الطبري (٥٧/١٥) .
 - ٣ الانعام ، الآية ١٣٧ .
 - ٤ الانعام ، الآية ١٤٠ .
 - ٥ الانعام ، الآية ١٥١ .
 - ٦ بلوغ الأرب (٤٤/٣) .
 - ٧ تفسير الطبري (٣٢/٨) وما بعدها ، بلوغ الأرب (٤٤/٣) .
 - ٨ القرطبي ، الجامع (٩١/٧) .

عبد المطلب على قتل ابنه عبدالله بسبب النذر الذي أخذه على نفسه على ما جاء في روايات اهل الأخبار^١ .

وهذا العامل هو الذي يفسر ما جاء في التوراة عن اقدم ابراهيم على ذبح ابنه ، ويشير الى وجود هذه العادة عند الإسرائيليين . وسبب قلة قتل الأولاد بالقياس إلى وأد البنات أن الولد عنصر مهم في الحياة الاقتصادية وفي الحياة الاجتماعية حيث يكون عُدّة لوالده ولأهله وعشيرته في الحروب ، ثم أن أسره في الحروب لا يعد شائناً مثل أسر البنات . والمرأة بالأسر تكون فريسة للأسرى . والمرأة ليست قادرة كالرجل على اعاشة نفسها وغيرها ولا على الغزو ، ولذلك صارت البنت هدفاً للوآد أكثر من الذكر^٢ .

وقد تأثر بعض ذوي القلوب الرقيقة من عادة (وأد البنات) ، وسعوا لإبطالها . وكان بعض الموسرين منهم يفتدي البنات من القتل بدفع تعويض إلى أهلهن ، وأخذهن لتربيتهن . فكان (صعصعة بن ناجية) جدّ الفرزدق الشاعر المعروف ، ومن أشرف تميم ، يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بنتاقتين عشاوين وجمل^٣ . فجاء الإسلام وعنده ثلاثون مؤودة^٤ . وذكر أنه فدى أربعائة جارية ، وقيل ثلاثمائة جارية من الجاهلية حتى مجيء الإسلام . وذكر على لسان الفرزدق أنه قال : (أحبا جدتي اثنتين وتسعين مؤودة)^٥ . وأنه منع الوثيد في الجاهلية فلم يدع تيمماً تئد وهو يقدر على ذلك^٦ . وذكر أنه قال للرسول إنه اشترى (٢٨٠) مؤودة ، دفع عن كل واحدة منهن ناقتين عشاوين وجمل^٧ . وأنه كان لا يسمع بمؤودة يراد وأدها ، وهو يتمكن من احياؤها ، الا جاء والده

-
- ١ القرطبي ، الجامع (٩١/٧) ، الماوردي ، اعلام النبوة (١٢٦) ، بلوغ الارب (٤٦/٣) وما بعدها ، السيرة الحلبية (٣٩/١) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢٤٨/٢) وما بعدها .
 - ٢ الامومة عند العرب (ص ٥٠) .
 - ٣ المستطرف (٧٧/٢) ، القرطبي ، الجامع (١١٧/١٠) وضع لفظة (عمي) في موضع (جدي) في شعر (الفرزدق) ، و (صعصعة) جد الفرزدق ، لا عمه ، الاصابة (١٧٩/٢) ، (رقم ٤٠٦٨) .
 - ٤ الاشتقاق (١٤٧/١) ، المرزباني ، معجم الشعراء (٤٨٦/٢) .
 - ٥ أمالي المرتضى (٢٨٤/٢) وما بعدها ، الاغاني (٢/١٩) وما بعدها .
 - ٦ أمالي المرتضى (٢٨٤/٢) ، الاغاني (٣/١٩) ، تيسير الوصول (١١٣/٣) .
 - ٧ نهاية الارب (١٢٦/٣) وما بعدها .

فقداهما ، وأنه سأل قومه في ترك الواد ، فخفض بذلك منه . وعدّ ذلك مكربة ما سبقه اليها أحد من العرب^١ .
والى (صعصعة بن ناجية) ، أشار الشاعر (الفرزدق) ، مفتخراً به في شعره ، إذ قال :

وجدتي الذي منع اللواتدات وأحيا الوئيد قلم يوأد^٢

وله أشعار اخرى في هذا المعنى .

وكان (عمرو بن قنيل) يحكي المؤودة لأجل الإملاق . يقول للرجل إذا أراد ان يفعل ذلك : لا تفعل ! أنا أكفئك مؤوتتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤوتتها^٣ .

وذكر (القرطبي) في تفسير الآية : (ويجعلون لله البنات ، سبحانه وهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم)^٤ . انها (نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أنّ الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات)^٥ . فنسب فعلهم الواد الى هذه العقيدة .

ولست استبعد ما ذكره اهل الأخبار من وجود دافع ديني حمل الجاهلين على قتل الأولاد وعلى الواد ، بأن يكون ذلك من بقايا الشعائر الدينية التي كانت في القديم ، وتقديم الضحايا البشرية الى الآلهة لخير المجتمع وسلامته ، وإرضاء الآلهة هي شعيرة من الشعائر الدينية المعروفة . فليس بمستبعد ان الواد والقتل من بقايا تلك الشعائر ، والغريب في الواد انه يكون بالدفن ، بينما العادة في الضحايا التي تقدم الى الآلهة ان تكون بالذبح او بالطعن وبأمثال ذلك ، كي يسهل الدم من

-
- ١ الاغاني (١٩ ، القسم الاول ، ص ٣ وما بعدها) .
٢ اللسان (٤٤٢/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٢٠/٢ وما بعدها) ، (واد) .
وقال :
ومنا من أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاملون ودافع
تفسير الطبري (٤٦/٣٠) .
ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والاقارع
٣ السيرة الحلبية (٥٣/١) .
٤ النحل ، الآية ٥٧ وما بعدها .
٥ القرطبي ، الجامع (١١٦/١٠) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) ، في تفسير سورة النحل .

الضححية ، والدلم هو الغاية من كل ضححية، لأنه الجزء المهم من الضحايا المخصص بالآلهة . وعلى الجملة إن الواد هو نوع أيضاً من القتل ، وذبح الأولاد وتقديمهم قرابين الى الآلهة Infanticide ، عبادة معروفة عند امم اخرى كانت تمارسها لترضي بذلك الآلهة وتنجيب مطالبها^١ .

وعدّ من الواد (العزل) ، وهو ان يعتزل الرجل امرأته لثلا تنجب له اولاداً . وقد عرف في الاسلام بـ (الواد الخفي) وبـ (الواد الأصغر) . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الواد الخفي) ، وفي حديث آخر (تلك المؤودة الصغرى)^٢ . وقد بحث عنه في كتب الفقه والتفسير . وروي ان رسول الله قال في ناس : (لقد هممت ان أنهي عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون اولادهم ، ولا يضر اولادهم ذلك شيئاً . ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك الواد الخفي وهو المؤودة سئلت^٣ . والغيلة إذا اتيت المرأة وهي ترضع ولدها ، وكذلك إذا حملت امه وهي ترضعه^٤ . وقد جعل الحديث (العزل) عن المرأة بمنزلة الواد إلا انه خفي ، لأن من يعزّل عن امرأته انما يعزل هرباً من الولد . ولذلك سمّاها المؤودة الصغرى ، لأن وأد البنات الأحياء المؤودة الكبرى^٥ .

ولم ينفرد العرب بقتل الأولاد وبوأد البنات ، بل نجد ذلك عند غيرهم من الشعوب كذلك ، مثل المصريين واليونان والرومان وشعوب استرالية . أما العوامل التي حملت تلك الشعوب عليها فهي عديدة ، منها عوامل دينية مثل الاعتقاد بحلول الأرواح ، ومنها اقتصادية كالحشية من الفقر ، ومنها ما يتعلق بالصحة كأن يكون المولود ضعيفاً فيقضي عليه الوالدان^٦ .

ومن ذبول الفقر وسوء الأوضاع الاقتصادية ، انتشار اللصوصية والاعتداء على أموال الناس ، وابتزازها وقطع الطرق وسلب الناس . وما الذي يفعله الفقير

١ Ency. Relig I, p. 669, Smith, Kinship, p. 370.
٢ بلوغ الارب (٥٣/٣) ، النهاية في غريب الحديث (١٨٩/٤) ، اللسان (٤٤٢/٣) وما بعدها) ، (واد) .
٣ تفسير ابن كثير (٤٧٧/٤) .
٤ تاج العروس (٥٣/٨) ، (غيل) .
٥ اللسان (٤٤٣/٣) ، (واد) .
٦ Ency. Brita., 12, p. 322.

والمحتاج ومن له متعة في الجسم وضعف شديد في الجيب لاعاشة نفسه وأهله غير اللجوء الى هذه الطرق في الحصول على لقمة العيش ، إن لم يجد له وسيلة كسب أخرى ؟

واللص ، هو السارق . وذكر أن اللفظة من لغة طيء وبعض الأنصار^١ . وتقابل Listis في اليونانية ، بمعنى السارق . لذلك ذهب البعض الى أنها من هذا الأصل^٢ .

ونظراً لتستر اللص في حرفته ، وممارسته لما بتكم وحذر خوفاً من الفضيحة والقبض عليه . مارس عمله بالليل في الغالب ، حيث يرقد الناس . مارسه بخفة ومهارة ، فكفى عنه بكفى . منها : (ابن الليل) ، و (ابن الطريق) ، لأنه يمارس اللصوصية بالليل وعلى الطرق^٣ .

ويقال لمن يسرق الدراهم بين أصابعه (التفاف) . يقال : (قف الصيرفي قفراً) ، بمعنى سرق الدراهم بين أصابعه^٤ . وأظن أن ههنا الاستعمال استعمال مولد ، ولد في الإسلام .

ويعبر عن السطو والاستيلاء عنوة وعن سرقة أموال الناس ، بتعابير أخرى في اللغات العربية الجنوبية ، منها (خرط)^٥ ، بمعنى سرق ، و (حلص)^٦ ، بمعنى سرق ونهب وسلب ، وكل ما يؤخذ حيلة وسرقة .

وتعدّ السرقة عيباً عند العرب، لأنها تكون دون علم صاحب المسروق وبمغافلته . والمغافلة والاستيلاء على شيء من دون علم صاحبه عيب عندهم ، - وفيه جبن ونذالة . أما الاستيلاء على شيء عنوة وباستخدام القوة ، فلا يعدّ نقصاً عندهم ولا شيئاً ولا يعدّ سرقة ، لأن السالب قد استعمل حق القوة ، فأخذه بيده من صاحب المال المسلوب . فليس في عمله جبن ولا غدر ولا خيانة . ولذلك فرقوا بين لفظة (سرق) وبين الألفاظ الأخرى التي تعني أخذ مال الغير ، ولكن من

- ١ تاج العروس (٤/٤٣٢) ، (لص) .
- ٢ غرائب اللغة (٢٦٨) .
- ٣ اللسان (ينى) ، (٩٢/١٤) .
- ٤ تاج العروس (٦/٢٢٤) ، (قف) .
- ٥ South Arabian Inscriptions, p. 436.
- ٦ المصدر نفسه .

غير تستر ولا تحايل . فقالوا : « السارق عند العرب من جاء مستتراً الى حرز ، فأخذ مالاً لغيره . فإن أخذه من ظاهر ، فهو مختلس ومستلب ومتهب ومخترس ، فإن منع ما في يده ، فهو غاصب »^١ .

ولم تعد (الغارة) سرقة ولا عملاً مشيناً يلحق الشين والسبة بمن يقوم به . بل افتخر بالغارات وعدّ المكثّر منها (مغواراً) . لما فيها من جرأة وشجاعة وإقدام وتكون الغارة بالتحليل في الغالب ، ولذلك قال علماء اللغة : « أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل »^٢ . وقد عاش قوم على الغارات ، كانوا يغيرون على أحياء العرب ، ويأخذون ما تقع أيديهم عليه ، ومن هؤلاء (عروة بن الورد) ، إذ كان يغير بمن معه على أحياء العرب ، فيأخذ ما يجده أمامه ، ليرزق به نفسه وأصحابه . بعد أن انقطعت بهم سبل المعيشة ، وضاعت بهم الدنيا . فاختراروا الغارات والتعرض للقوافل سبباً من أسباب المعيشة والرزق . وذكر أهل الأخبار أسماء رجال عاشوا على الغارات وعلى التريص للمسافرين لسلب ما يحملونه معهم من مال ومتاع .

الأفراح :

الأفراح ، عامة او خاصة . فن الأفراح العامة ، الأعياد والمناسبات الماثلة ، مثل انتصار في حرب وغزو او تولي ملك عرشاً او سيد رئاسة قبيلة . ومن الخاصة ، الزواج والبرء من مرض ، والعود من سفر ، وأمثال ذلك . ولما كان العرب في جاهليتهم قبائل وشيعاً وكان الاتصال بينهم صعباً ، صارت أعيادهم كثيرة غير متفقة في زمان او مكان ، ذات صفة محلية ، لا يشترك فيها كل عرب جزيرة العرب . وهي مرتبطة بالأصنام في الغالب وبالمواسم التجارية التي تتجلى في انعقاد الأسواق .

ولذلك ، فأنا حين أتحدث عن اعياد اهل الجاهلية فلن أستطيع أن آتي باسم عيد واحد ، أقول إن جميع العرب كانوا يعيدون ويفرحون جميعهم به ، لما ذكرته من انقسام الجاهليين الى قبائل وشيع وعدم وجود دين واحد لهم ، يجمع

١ تاج العروس (٢٧٩/٦) ، (سرق) .

٢ تاج العروس (٤٥٨/٣) ، (غور) .

شملهم . والدين من اهم العوامل المساعدة لظهور الأعياد وجمع شمل المؤمنين به للاحتفال بها . ولذلك فأعياد الجاهليين هي اعياد موضعية تعيد قبيلة او مدينة او مملكة بعيد ، ولا يعرف عنه بقية العرب اي شيء . أما اعياد اليهود والنصارى والعرب فأمرها أمر آخر ، لأن اليهودية والنصرانية قد حددتا تاريخاً ثابتاً للأعياد فيها ، فصارت معروفة عند أتباع الديانتين يحتفلون بها في الأجل الموقوت .

وكان الحج الى مكة من أهم مواسم العرب في الحجاز ، وهو عيد ، يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل ومختلف الأماكن للتقرب الى الأصنام وللتلاقي في ظروف أمن وسلام لا يحلّ فيها قتال ولا اعتداء ولا لغو ولا فحش . ويقوم اهل مكة بخدمة الوافدين الضيوف ، ضيوف (البيت) ، وتمر ايام خالية من غدر واعتداء وقتل وأخذ بثأر يلبس فيها الناس خير ما عندهم من لباس ويتجلون بأحسن صورة . فإذا انتهت الأيام عادوا الى ديارهم .

وذكر انه كان لأهل (يثرب) يومان يعيدون فيهما ، يلعبون فيهما ويستأنسون ، هما : النيروز ، والمهرجان . فلما قدم الرسول المدينة أبلههما بيوم الفطر والأضحى^١ . والظاهر ان اليثريين أخذوا عيديهما المذكورين من الفرس^٢ ، (النيروز) عيد شهير من اعياد الفرس من اصل (نو) بمعنى جديد و (روز) بمعنى يوم ، أي أول يوم من السنة الإيرانية الشمسية . وأما (المهرجان) ، فإنه عيد من أعياد الفرس كذلك ، يعيد به في الشهر السابع من شهورهم الشمسية ، وهو شهر (مهر) (مهرماه) ، ويدعى العيد (مهركان) . وقد بقي الفرس يحتفلون به في الإسلام ، حتى زماننا هذا ، وورد ذكره في الأشعار^٣ .

ولم يذكر أهل الأخبار كيف عيّد أهل (يثرب) بهذين العيدين اللذين هما من أعياد الفرس . ولا ما هي صلتهما بهما .

وذكر أهل الأخبار عيداً سموه (يوم السبع) ، قالوا إنه عيد كان لهم في

١ جامع الاصول (١٦٦/١٠) ، عن العيد ، راجع المخصص (١٠٢/١٣) ، اللسان (٣١٨/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٢٨/٢) ، المحكم والمحيط الاعظم (٢٣٢/٢) ، معجم مقاييس اللغة (١٨١/٤ ، ١٨٢) ، القاموس (٣١٩/١) ، مقدمة الصحاح (٥١٢/١) .

٢ بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، اللسان (٤١٦/٥) .

٣ بلوغ الارب (٣٥٢/١ وما بعدها) . غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

الجاهلية ، يشتغلون فيه بلهوهم وعيدهم من كل شيء^١ . ولم يتحدثوا بشيء مفصل عنه ، ولم يذكروا أنه عيد من^٢ .

وورد في بيت شعر للنابغة اسم عيد دعاه (الساسب) ، وقد ذكر أهل الأخبار أنه كان عيداً لقوم من العرب في الجاهلية وكانوا يحيون فيه بالريحان .

رقاق النعال ، طيبٌ حُجْرَاتِهِمْ يحيون بالريحان يوم السَّاسِبِ^٢

وهو في الواقع عيد من أعياد النصرارى ، كما أشار الى ذلك أهل الأخبار . إذ ذكروا أنه (عيد للنصرارى ويسمونه يوم الشعانين)^٣ .

وقد كان هذا العيد معروفاً في الحجاز أيضاً ، ورد في الحديث « إن الله تعالى أبدلكم بيوم الساسب يوم العيد »^٤ . وإذا صح ورود هذا الحديث عن الرسول ، كان ذلك دليلاً على أن أهل مكة كانوا قد عرفوا هذا العيد وعيادته وربما كانوا أخذوه عن النصرانية .

ولم ترد في نصوص المسند إشارات الى أعياد العرب الجنوبيين ولم ترد إشارات الى الأعياد في النصوص التمودية أو اللحيانية أو الصفوية . لذلك لا أستطيع أن أتحدث عن العيد عند العرب الجنوبيين أو اللحيانيين أو الصفويين أو قوم ثمود . وقد اشار بعض الكتبة (الكلاسيكيين) الى تعييد النبط وعرب اعالي الحجاز واحتفائهم فيها بأصنامهم وحجّتهم الى معابدهم ، إلا أنهم لم يُسموا تلك الأعياد بأسمائها .

وقد عيد يهود جزيرة العرب بأعيادهم ايضاً . وكانوا يحافظون عليها ، لأنها في عقيدتهم عمل من الأعمال الدينية . ولم يكونوا يشتغلون فيها^٥ ، إذ يرون في

-
- ١ تاج العروس (٣٧٢/٥) ، (سبغ) ، بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، اللسان (١٤٨/٨) .
 - ٢ بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، تاج العروس (٤١/٣) ، (الكويت) (سبب) اللسان (سبب) ، ديوان النابغة (٤٥) .
 - ٣ تاج العروس (٢٩٤/١) ، (سبب) .
 - ٤ تاج العروس (٤١/٣) ، (طبعة الكويت) ، (سبب) ، (٢٩٤/١) ، (المطبعة الخيرية) .
 - ٥ صبح الاعشى (٤٢٦/٢) وما بعدها .

الخروج عليها خروجاً على الدين الذي منعهم من الاشتغال في ايام السبت والأعياد وحثم عليهم وجوب مراعاة حرمة تلك الأيام مراعاة تامة .

ومن اعياد اليهود التي عرفها الجاهليون عيد رأس السنة ، وعيد الصوم الكبير (الكبور) ، و (عيد المظال) و اعياد اخرى .

أما العرب النصارى ، فقد عتدوا بأعيادهم الدينية ، واحتفلوا بها ، وفي المواضع التي كانت فيها جماعة كبيرة منهم كانت احتفالاتهم بها اوضح وأفرح . وفي الحيرة ، حيث نفشت النصرانية وانتشرت ، كان الناس يتزينون ويتجملون ويلبسون أحسن ما عندهم من حلل في ايام أعيادهم ، مثل (عيد السعائين) (عيد الشعائين) ، ويحتفلون في البيع والكنائس والأديرة فرحاً بذكرى العيد ، ويخرجون بصليبانهم^١ .

وذكر ان (يوم السعائين) (يوم الشعائين) ، هو (يوم السباسب) ، العيد الذي مرّ ذكره ، وقد كان من أعياد النصارى^٢ . وقد اشتقت كلمة (السعائين) (الشعائين) من العبرانية ، أخذت من لفظة (هوشعنا) ، التي كان يتהלل بها اليهود أمام المسيح . و (السباسب) : الأغصان ، يريدون منها سعف النخيل الذي قطعه اليهود يوم استقبلوا المسيح في دخوله أورشليم^٣ .

وذكر أن (المهترمز) ، و (الهترمن) ، و (الهيزمن) ، كلها : عيد من أعياد النصارى أو سائر العجم ، وهي أعجمية . قال الأعشى :

إذا كان هترمن ورُحْتُ مَحْشَمَا^٤

واشتهر (عيد الفصح) ، وهو عيد فطر النصارى ، إذا أفطروا وأكلوا اللحم . وقد أشار إليه الأعشى بقوله :

- ١ الاغاني (٣٠/٢) ، (طبعة ساسي) ، صبح الاعشى (٤١٥/٢ وما بعدها) ، اللسان (٢٠٩/١٣) .
- ٢ اللسان (٤٦٠/١) ، (صادر) ، (سبب) ، المخصص (١٠٢/١٣) تاج لعروس (٢٩٤/٤) ، نهاية الارب (١٩١/١ وما بعدها) ، تاج العروس (٢٣٥/٩) .
- ٣ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثاني ، القسم الاول (ص ٢١٥) ، المخصص (١٠٢/١٣) ، ديوان النابغة (ص ١٥) .
- ٤ المخصص (١٠٢/١٣) ، الاثار الباقية (٢٩٢) ، اللسان (٢٦٧/٥) ، (هنزمر) ، تاج العروس (٦٢٣/٣) ، (هنزمر) .

٣٣ تقرب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما سدّى وما صنعا^١

وذكر العلماء اسم عيد آخر من أعياد النصارى دعوه (السلاق) ، ذكروا أنه مشتق من تسلق المسيح الى السماء^٢ . والكلمة من أصل إرمي ، هو Souloqo بمعنى صعود . وقصد به عيد صعود المسيح الى السماء^٣ . وللنصارى عيد آخر اسمه (خميس الفصح) ، وعرف أيضاً بـ (خميس العهد) . وقد احتفل به نصارى الحيرة^٤ . وذكر علماء اللغة أن للنصارى عيداً من أعيادهم اسمه (دنح) ، وتكلمت به العرب^٥ . وهو من أصل إرمي هو (دنحو) ، بمعنى اشراق وظهور . ويراد به (عيد الغطاس)^٦ .

وتضاف اليها الأعياد المحلية ، التي كان يحتفل فيها بأيام القديسين . فقد كان الغساسنة يحتفلون مثلاً في الرصافة بعيد (القديس سرجيوس) . وكان لنصارى العراق أعيادهم الخاصة بهم حسب مذاهبهم . يكرسونها تخليداً لذكرى قديسيهم . وقد اشتهر النصارى بين الجاهليين وفي الإسلام بمحافظتهم على أعيادهم حتى ضربوا المثل بأعياد النصارى . فقال العجاج :

واعتاد أرباضاً لها آري^٧ كما يعود العيد نصراني^٧

والعادة – كما هو شأن كل الأمم – أن يتزين في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس المتفخخة والحلل المنيمة والبرود المعجبة ، وأن يظهر الشبان مقسدرتهم وبراعتهم في التسابق على الخيل وفي الألعاب وفي الظهور أمام النساء ، ويلعب الصبيان أنواعاً من الملاعب ، وان يتغنى ويزمر بالدفوف والمزاهر وأمثال ذلك ،

- ١ ديوان الاعشى (القصيدة ١٣ ، سطر ٦٩) ، اللسان (٥٤٥/٢) ، القاموس (٢٤٠/١) ، مقاييس اللغة (٥٠٧/٤) ، مقدمة الصحاح (٣٩١/١) .
- ٢ اللسان (١٦٣/١٠) ، (صادر) ، (سلق) .
- ٣ غرائب اللغة (ص ١٨٨) .
- ٤ الاغانى (٣٢/٣) ، النصرانية ، القسم الثاني الجزء الثاني القسم الاول (ص ٢١٦) ، نهاية الارب (١٩١/١) وما بعدها .
- ٥ اللسان (٤٣٦/٢) ، (دنح) ، تاج العروس (١٣٦/٢) ، (دنح) ، المخصص (١٠٢/١٣) .
- ٦ غرائب اللغة (١٨١) ، نهاية الارب (١٩١/١) وما بعدها ، الاثار الباقية (٢٩٢) وما بعدها .
- ٧ تاج العروس (٤٣٨/٢) ، (عود) .

لتكسب الأيام بهجتها وروعيتها . وكان من عادة أشرف الحيرة اللعب على الخيل بالصوالة ، وذلك على طريقة العجم^١ .

وقد يخضب الرجال والنساء أيديهم بالخضاب ، ولا سيما (الخناء) . ولكن هذا النوع من إظهار الفرح والسرور ، غالب في الأعراس وفي الختان ، حيث تولم الولايم وتقام الأفراح ، ويخضب بالخناء .

اللعب في العيد :

ومما كان يتلهى به الميعدون ويتسلون به ، الغناء ، واللعب بمختلف أنواعه . وفي جملة استخدام السودان للعب بلعبتهم الشهيرة لعبة الدرق والحراب^٢ . وقد برع في الغناء نساء ورجال . وذكر ان أهل (يثرب) كانوا اهل طرب وكانوا يحبون الغناء^٣ ، وانهم استخدموا (الحبش) للضرب على الدف والغناء في ايام الأعياد . وقد كانوا يلعبون في المسجد بالدرق والحراب ولم ينههم الرسول عن ذلك ، لأن اللعب كان في ايام العيد^٤ . وقد غنت جاريتان لـ (عائشة) بإنشاد العرب بغناء بعثت ، كما أذن الرسول للسودان باللعب في مسجده في الحراب والدرق ، ونشطهم بقوله : (يا بني أرفدة)^٥ .

الغناء :

وطرب الأعراب ، طرب ساذج يتناسب مع طبيعة بيئاتهم ، وكذلك كان غناؤهم غير معقد ولا متنوع . أما طرب أهل الحضرة ، فكان أكثر تعقيداً وتفناً ولا سيما طرب أهل الحضرة الساكنين في ريف العراق وفي بلاد الشام ، وعند أهل

-
- ١ الاغاني (١٩/٢) ، (طبعة ساسي) .
 - ٢ نهاية الارب (١٣٨/٤) .
 - ٣ نهاية الارب (١٣٩/٤ وما بعدها) ، (أما كان معكن لهو ، فان الانصار يعجبهم اللهو) ، نهاية الارب (١٤٨/٤) .
 - ٤ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢٠/٦) .
 - ٥ القسطلاني ، ارشاد (٢٠٤/٢ وما بعدها) ، (باب اباحة الحراب والدرق يوم العيد) .

اليمن ، فاستعملوا آلات طرب متعددة ، أخذوا بعضها من الأعاجم الذين اتصلوا بهم ، كما أخذوا من أولئك الأقوام ألواناً من ألوان الغناء وفنونه . هذا الاختلاف لا بد أن يقع ، لاختلاف أهل الوبر وأهل المدر في البيئات ، وفي الطبائع والعادات .

وللشعر علاقة كبيرة بالغناء . فالغناء هو التغني بالشعر . ولذلك قالوا : تغني بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحاء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً^١ . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . أما النثر ، فلا يناسب طبعه طبع الغناء . ويكون بينها جفاء . إذ لا يستقيم النثر العربي مع الوزن دائماً . لذلك فلا يمكن للمغني أن يغني به . قال (الجاحظ) : العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون^٢ . وذكر أن الغناء من الصوت ما طرب به^٣ .

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يستمعون الى القيان . وأن فارس كانت تعدّ الغناء أدباً والروم فلسفة . وأن الملوك العرب كانوا يملكون القيان أيضاً . ومنهم أشرف مكة وعلى رأسهم (عبدالله بن جدعان)^٤ .

وقد عرف غناء أهل البادية بـ (غناء الأعراب) ، وذلك لاختلافه عن غناء الحضرة^٥ .

فكان لأهل الحيرة مزاج في الغناء يختلف عن مزاج أهل البادية ، بل حتى عن مزاج غيرهم من الحضرة . وذلك للظروف الخاصة التي تحيط بهم ، مثل اختلاطهم بالفرس ، ووجود النصرانية والمؤثرات اليونانية فيما بينهم . وقد كان في كنائس العباديين نصارى الحيرة ، تراتيل وترانيم ، وهي بالطبع نوع من الغناء الروحي ، وقد كان عندهم خمر تبث على الانشراح والانبساط ، وأديرة مزدانة بالحضرة والرياحين والأزهار ، وفيها ماء طيب وغناء رهبان وراهبات ،

- ١ بلوغ الأرب (٣٦٩/١) ، تاج العروس (٢٧٢/١٠) ، (غنى) ، اللسان (١٣٥/١٥) ، (غنى) .
- ٢ بلوغ الأرب (٣٦٩/١) .
- ٣ تاج العروس (٢٧٢/١٠) ، (غنى) .
- ٤ رسائل الجاحظ (١٥٨/٢) .
- ٥ نهاية الأرب (١٩٣/٤) .

فلا عجب إن طرب سكانها وتفتنوا في غنائهم، وتميزوا به عن بقية الغناء العربي ، حتى قيل له : غناء أهل الحيرة ، وقد ذكر : انه بين الهزج والنصب ، وهو الى النصب أقرب ، كما كانت لهم لغة امتازت عن لغات العرب الآخرين غنوا بها ، فأكسب غناؤهم طابعاً حيرياً خاصاً^١ .

ومن مرادفات الغناء (السمود) بلغة حمير . وقيل السمود اللهو وبصورة خاصة الغناء^٢ .

وللفقهاء في الاسلام آراء في قراءة القرآن . منهم من جوز قراءته بالألحان ، ومنهم من جوز قراءته بالترجيع ، وغير ذلك^٣ . والترجيع ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به . وقيل الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت^٤ .

وأما (العزف) ، فالملاهي ، واللعب بالمعازف ، وهي الدفوف وغيرها مما يضرب . والمعازف اللاعب بها والمغني . وعزف الدف صوته . والمعزف ، ضرب من الطنابير يتخذها أهل اليمن وغيرهم ، ويجعل العود معزفاً^٥ .

ويعبر عن الاستماع الى الغناء والإنصات لصوت المغني بـ (السماع) . ويحدث السماع طرباً في النفس . وقد صار للكلمة معنى خاص في الاسلام ، إذ حولت الى سماع الترانيم الدينية في الغالب ، لذلك لم ينظر اليه نظرة الناس الى الغناء^٦ .

وتغنى أهل الجاهلية في كل المناسبات المبهجة ، وضربوا على آلات الطرب . ومن هذه المناسبات الزواج والعودة من الأسفار ، كما كانوا ينثرون أنه إن تحقق مطلب لهم فإنهم يقيمون مجلس طرب يتغنى فيه : كمناسبة شفاء من مرض أو عودة من حرب^٧. وكان شبان مكة يذهبون الى السمر ويلهون بسماع الغناء وبالضرب على الدفوف والاستماع الى ترمير الزمار^٨ . كما استعمل الغناء في الغزو ، وذلك

-
- ١ الاغاني (١٢١/٢) (طبعة ساسي) .
 - ٢ اللسان (٢١٩/٣) ، نهاية الارب (١٣٤/٤) .
 - ٣ ابن قيم الجوزية (١٣٤/١) ، (في هدية صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن)
 - ٤ تاج العروس (٣٥١/٥) ، (رجوع) .
 - ٥ اللسان (٢٤٤/٩) ، المخصص (١٢/١٣) ، تاج العروس (١٩٧/٦) ، (عزف) .
 - ٦ نهاية الارب (١٦١/٤) وما بعدها () .
 - ٧ نهاية الارب (١٤٠/٤) وما بعدها () .
 - ٨ نهاية الارب (١٤٥/٤) وما بعدها () .

لتنشيط الغازين وتخريضهم على القتال . ومن هذا القبيل ما يرتجز به الشجعان عند اللقاء في الحرب . واستعمل في الختان وفي العميقة والولائم^١ .

آلات الطرب :

وآلات الطرب عند العرب ثلاثة : آلات ذات أوتار كالعود وآلات نفخ ، وآلات ضرب كالصنوج والطبل والدف^٢ .

والطرب : الفرح والحزن وهو ضد ، أو هو خفة تلمحك سواء تسرك أو تخزنك . فهي تعبري عند شدة الفرح أو الحزن أو الغم . والتطريب التغمي . ويقال طرب فلان في غنائه تطريباً إذا رجع صوته وزينه^٣ .

والدف من آلات الطرب القديمة المشهورة ويستعمل . للتعبير عن العواطف في الفرح والسرور . وهو معروف عند الساميين ويسمى (توف) (تف) Toph عند العبرانيين . وقد ورد ذكره في التوراة . وتقر به النساء أيضاً^٤ . وقد كان شائعاً عند العرب ، ينقرون به في أفراحهم . ولما وصل الرسول الى يثرب ، استقبل بفرح عظيم وبالغناء وينقر الدفوف . وأكثر ما استعمله العرب في المناسبات المفرحة ، كالنكاح . ورافقوا الضرب به أصوات الغناء^٥ .

وقد وردت في الشعر الجاهلي أسماء آلات طرب عرفت في ذلك العهد ، فورد في شعر الأعشى : الناي ، والبربط ، والصنج ، وهي آلات عرفت عند الفرس . وقد دعي (الناي) بـ (ناي نرم) .

والناي نرم وبربط ذي بُحْة والصنج يبكي شجوة^٥ أن يوضعا

وقد ذكر الجواليقي ان البربط معرب ، وهو من ملاحمي العجم ، شبهه بصدر

-
- ١ نهاية الارب (١٦٨/٤ وما بعدها) .
 - ٢ تاج العروس (٣٥٤/١) ، (طرب) .
 - ٣ Smith, Diction., Vol. III, p. 1502, Hastings, p. 638, A Relg. Ency. Vol. III, p. 1599.
 - ٤ تاج العروس (١٠٨/٦) ، (دف) .
 - ٥ المغرب (ص ٧٢ ، ٢١٤ ، ٣٤٠) ، المقد الفريد (٢٣/٦) .

البط . والصدر بالفارسية (بر) ، فليل بربط^١ . وقد ورد في العقد الفريد :
(العود الكران . والمزهر أيضاً هو العود ، وهو البربط)^٢ . والبربط من آلات
الملاهي المشهورة عند الروم .

وعرف الجواليقي (الصنج) فقال : « والصنج الذي تعرفه العرب هو الذي
يتخذ من صفر ، يضرب أحدهما بالآخر ... فأما الصنج ذو الأوتار ، فتختص
به العجم ، وهما معربان . وسموا الأعشى (صناجة العرب) بلجودة شعره^٣ .
وذكر أن اللاعب بالصنج هو (الصنّاج) و (الصنّاجة)^٤ .
وجاء الأعشى باسم آلة طرب أخرى من آلات الملاهي عند العجم ، دعاها
(الوّن) :

بالجُلسان وطيب أردانه بالوّن يضرب لي يكرُّ الإصبعاً^٥

ويظهر من هذا البيت أن الوّن آلة طرب ذات أوتار، يضرب عليها بالأصابع.
وقد ذكر بعض العلماء أن الوّن : (الصنج الذي يضرب بالأصابع وهو الونج ،
كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم)^٦ . وعرف بعضهم (الونج) بأنه « المعزف
أو العود ، فارسي معرب . وأصله بالفارسية وّنّه^٧ . وقد تكلمت به العرب^٨ .
ومنهم من جعل (الوّن) و (الونج) شيئاً واحداً .

ويذكر علماء اللغة أن (العرّطبة) هي اسم للعود ، وقيل : الطبل ، وقيل :
الطنبور : وقد ورد ذكرها في الحديث مع اسم آلة أخرى من آلات الملاهي ،
هي (كوبة)^٩ . ويرى العلماء أن (الكوبة) ، الطبل الصغير، وهي (الرد) ،
بلغة اليمن^{١٠} . وذكر أن (المرطبة) طبل الحبيشة خاصة^{١١} ، وان (الكوبة)

- ١ المعرب (ص ٧١) ، ابن خلكان ، الوفيات (٤٠٠/٢) ، تاج لعروس (١٠٥/٥) .
- ٢ (٢٧/٢) ، تاج العروس (١٠٤/٥ وما بعدها) ، (البربط) .
- ٣ المعرب (ص ٢١٤) ، الاغانى (٧٥/٨) . قال الاعشى
ومستجيباً تخال الصنج يسمعه اذا ترجع فيه القينة الفضل
اللسان (٣١١/٢) ، (صنج) ، تاج العروس (٦٧/٢) .
- ٤ تاج العروس (٦٧/٢) ، (صنج) .
- ٥ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٣٦٣/٩) ، (الوّن) .
- ٦ المعرب ، الحاشية ، تاج العروس (٣٦٣/٩) ، (الوّن) .
- ٧ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٣٦٣/٩) ، (الوّن) .
- ٨ المعرب (ص ٢٣٤) ، تاج العروس (٣٧٧/١) ، القاموس (١٠٣/١) .
- ٩ المعرب (ص ٢٩٥) ، تاج العروس (٤٦٤/١) .
- ١٠ تاج العروس (٣٧٧/١) ، (عرطبة) .

الربيط والشطرنج والطبل الصغير^١ .
 وذكر أهل الأخبار أن (النضر بن الحارث بن كلدة) كان يغني بالعود^٢ .
 والعود من جملة آلات الطرب القديمة . وهو (عوديت) عند العبرانيين . وقد
 أشير إليه في جملة آلات الموسيقى المستعملة في أيام داوود ، وذلك في الزمير^٣ .
 وذكر أن من أسماء العود (الكران) ، وأن (الكرينة) المغنية الضاربة بالعود
 أو الصنج^٤ .

ويعرف الوتر بـ (البم) ، ويقال هو الوتر الغليظ من أوتار المزهر^٥ .
 و (الناي) من آلات الطرب ، ينفخ فيه ، يصنع من الخشب ومن القصب^٦ .
 وذكر ان الناي من أسماء (الزمار) ، وهو من آلات النفخ كذلك . و (القصاب) ،
 وهو الذي ينفخ في القصب الزمار^٧ .

وأما (الهبرعة) ، فالقصبية ، التي يزمر فيها الراعي^٨ .
 وذكر أن (القنين) طنبور الحبشة . (وفي الحديث : إن الله حرّم الخمر
 والكوبة والنين) . والنين الضرب بالنين . وذكر أن الكوبة : الطبل^٩ .
 وأما (الكبر) ، فهو الطبل ، وقيل طبل له وجه واحد . وقيل هو الطبل
 ذو الرأسين^{١٠} . ويقال للطنبور (طبن) كذلك^{١١} .

و (الزمار) و (الزمارة) : ما يزمر فيه . ويقال للقصبية التي يزمر

-
- ١ تاج العروس (٤٦٤/١) ، (كوب) .
 - ٢ المعارف (ص ٢٥٠) .
 - ٣ Smith, A Diction III, p. 1304.
 - ٤ قال ليبيد :
 - ٥ صعل كسافلة القناة وظرفه وكان جؤجؤه صفيح كران
 تاج العروس (٣٢٠/٩) ، (كرن) ، اللسان (٣٥٧/١٣) ، (كرن) .
 - ٥ شمس العلوم (- ١ ق ١ ص ١١٨) ، الاغاني (١٢٠/٢) (ساسي) اللسان
 (٣٦/٣) .
 - ٦ العقد الفريد (٢٣/٦) .
 - ٧ المنخصص (١٥/١٣) .
 - ٨ المنخصص (١٤/١٣) ، تاج العروس (٥٥٦/٥) ، (هرع) .
 - ٩ اللسان (٣٤٩/١٣) ، تاج العروس (٣١٥/٩) .
 - ١٠ اللسان (١٣٠/٥) ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨) .
 - ١١ اللسان (٢٦٤/١٣) .

بها زمارة^١ . وأما (الرباب) ، فن آلات اللهو كذلك^٢ . وقد اشتهر الغناء بالزمار عند العرب ، وأجادوا فيه .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عباداتهم ، وربما استخدموا معه بعض آلات الطرب . وذلك تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقرباً إليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور الى قفوسها . وقد ذكر المفسرون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون^٣ . وإذا صح قولهم هذا ، فإنه يعني استعمال نوع من الطرب في حجّتهم وطوافهم بالبيت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الغناء العربي وما يختلف به ويمتاز عن غناء الأعاجم ، فقال : « العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »^٤ .

واللحن : الغناء . (وفي الحديث : اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإيّاكم ولحون أهل العشق)^٥ . ويراد به التطريب وترجييع الصوت وتحسين القراءة والشعر والغناء . وقد كان اليهود والنصارى يقرأون كتبهم نحواً من ذلك^٦ .

أصول الغناء الجاهلي :

ويرجع أهل الأخبار غناء الجاهليين إلى ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج . فأما النصب ، فغناء الركبان وغناء الفتيان والقينات ، ويغني به في المراثي كذلك . وقد دعاه إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، الغناء الجنابي نسبة إلى رجل من كلب يقال له : جناب بن عبدالله بن هبل . وهو الذي يقال له (المراثي) ، ومنه كان أصل الحداء ، وكله يخرج من الطويل في العروض . وأما السناد ، فالتثقيب ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وأما الهزج ، فالحفيف الذي يرقص عليه

- ١ اللسان (٣٢٧/٤) .
- ٢ تاج العروس (٤٧٢/٢) .
- ٣ تفسير الطبري (١٥٧/٩ وما بعدها) .
- ٤ العمدة (٣١٤) .
- ٥ اللسان (٣٨٣/١٣) ، (صادر) ، (لحن) .
- ٦ المصدر نفسه .

ويعيش بالدف والزمار فيطرب ويستخف الحليم^١ .
ويذكر أهل الأخبار ان الأنواع المذكورة كانت غناء العرب ، حتى جاء
الاسلام وفتحت العراق ، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء
المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف
والمزامير^٢ . وذكر أيضاً ان الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب قبل
ذلك إلا الحذاء والنشيد ، وكانوا يسمونه (الركباني) (الركبانية)^٣ . والنشيد
رفع الصوت ، ومن المجاز الشعر المتناشد بين القوم ينشده بعضهم بعضاً^٤ .
وذكر (المسعودي) أن غناء العرب النصب ، ثلاثة أجناس : الركباني ،
والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف^٥ .

ويرى بعض أهل الأخبار أن أصل الغناء ومعدنه إنما كان في أمهات القرى
من بلاد العرب ، حيث فشا بها ، وانتشر . ومن هذه مكة والمدینة والطائف
وخبير ووادي القرى ودومة الجندل واليامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب .
وروا أن أول من غنى في العرب قيتان لعاد ، يقال لهما الجرادتان^٦ . وهما قيتا
(معاوية بن بكر الجرهمي) (معاوية بن بكر العملي) غننا لوفد (عاد) بمكة ،
فشغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله فيما قصدوا ، فهلكت عاد وهم سامدون .
فلما رأى الجرهمي ، وهو معاوية بن بكر ، أحد العالقي ، ذلك قال : هلك
أخوالي (عاد) ، ولو قلت لضيوفي شيئاً ، ظنوا بي البخل ، فألقى الى الجرادتين
شعراً يذكر بمحنة (عاد) ، فأنشدها الضيوف . وكان الجرهمي سيد مكة حين
وقدت عاد تستقي في قحطها . وكان (قيل ابن عتر) أحد الرؤوس الثلاثة لوفد
عاد ، حين ذهبوا في القحط الى مكة يستسقون لقومهم^٧ .

-
- ١ العقد الفريد (٢٧/٦) ، بلوغ الارب (٣٦٩/١ وما بعدها) ، اللسان (٣٩٠/٢ وما بعدها) ، العملة (٣١٣) ، اللهو والملاهي ، لان خرداذبه (ص ١٨) .
 - ٢ العملة (٣١٤) .
 - ٣ نهاية الارب (٢٣٩/٤) .
 - ٤ تاج العروس (٥١٤/٢) ، (نشد) .
 - ٥ مروج (١٣٣/٤) ، (دار الاندلس) .
 - ٦ العقد لفريد (٢٧/٦) .
 - ٧ الامثال للميداني (٨٧/١) ، رسالة الغفران (٢٤٣) ، مروج (١٣٣/٤) ، (دار الاندلس) .

وورد أيضاً أن الجرادتين كانتا مغنيتين للنعمان . كما ورد ذكر الجرادتين وغناءهما لأبي رغال . وورد أنه كان ممكة في الجاهلية قيتان يقال لهما الجرادتان مشهورتان بحسن الصوت^١ . وقيل إن الجرادتين كانتا أمتين تتغنيان في الجاهلية وكانتا لعبدالله ابن جدعان^٢ .

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، أن العرب تُسمي كسل قينة جرادة ، حملاً على أن قينة في الدهر الأول كانت تدعى الجرادة . واستشهد بهذا البيت :

تغنينا الجراد ونحن نشرب نعلّ الراح خالطها المشور^٣

وذكر بعض العلماء أن (جذيمة الخزاعي بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر) ، المعروف بـ (المصطلق) ، كان من أحسن الناس صوتاً ، وقد غنى بعد (الجرادتين) ، غنى غناء التصب^٤ . وذكر انه أول من غنى في خزاعة^٥ . ثم غنى بعده (ربيعة) ، وهو (ضبيس بن حزام بن حيشة بن سلول ابن كعب بن عمرو بن عامر) الخزاعي ، ثم غنى بعده (زمام بن خطام الكلابي) ، وقد ذكره (الصمة القشيري) ، بقوله :

دعوت زماماً للهوى فأجاني وأي فقي للهو بعد زمام^٦

وذكر (السعودي) ، أن غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنس واحد ، وغناؤهم جنسان : حنفي ، وحميري . والحنفي أحسنها^٧ ، فهذا هو غناء أهل اليمن . ورجع بعض أهل الأخبار غناء أهل اليمن إلى (علس بن زيد ذي جدن) ، زعموا انه أول من تغنى باليمن^٨ . وزعموا أنه كان من ملوك اليمن ، لقب بني جدن ، لجمال صوته . فالجدن الصوت عند أهل اليمن^٩ .

-
- ١ اللسان (١١٨/٣) ، (صادر) ، (جرد) ، تاج العروس (٣١٨/٢) (جرد) .
 - ٢ الاغاني (٢/٨) (طبعة ساسني) .
 - ٣ رسالة الغفران (٢٤٤) .
 - ٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
 - ٥ تاج العروس (٤١٢/٦) .
 - ٦ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
 - ٧ مروج (١٣٤/٤) .
 - ٨ الاغاني (٣٧/٤) .
 - ٩ اللهو والملاهي (٢٠) .

وذكر ان قريشاً لم تكن تعرف من الغناء ، إلا النصب ، حتى قدم (النضر ابن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) العراق ، فتعلم ضرب العود وغناء العباديين ، فقدم مكة ، فعلم أهلها ، فاتخذوا القيان^١ . ويظهر من غربة ما ورد في الأخبار عن الغناء ، أن المراد به ، تلحين ما يراد التغني به وتطريبه ، حتى يثير الطرب في نفوس السامعين ، لا سيما إذا اقترن بآلة من آلات الطرب . ونادراً ما يكون غناء دون (موسيقى) . فالموسيقى تصاحب الغناء . والغناء : تلحين ما يراد التغني به بتقطيعه قطعاً موزونة تكون نغمة ، يوقع على كل صوت منها بإيقاع يناسبه ، فيزيده لذة في السماع^٢ .

وذهب (المسعودي) الى أن أول من اتخذ القيان من العرب ، أهل يثرب . أخذوا ذلك من بقايا عاد^٣ . بينما يذكر الأخباريون ، أن أول من غنى من العرب العاربة الجرادتان ، وكانتا قيتين على عهد عاد ، لمعاوية بن بكر العمليقي^٤ . وفي جملة من قال ذلك (ابن خردادبه) ، الذي اعتمد (المسعودي) عليه في موضوع الغناء ، ونقل من كتابه (اللهو والملاهي) بالنص^٥ .

والقينة عند علماء اللغة : الأمة المغنية ، وذكروا أنها كلمة هذلية . وقال بعض آخر : مغنية كانت أو غير مغنية . وإنما قيل للمغنية قينة ، إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر^٦ . والظاهر أنها من الألفاظ المعربة ، فالغناء في لغة (بني إرم) هو (قنتو) Qinto والمغنية (قينة) من الغناء (قنتو)^٧ .

وذكر أن من أسماء (القينة) (الزمارة) و (الزامرة) ، وقيل للمغني (الزمار) ، وذلك من التزمير بالزمار^٨ .

-
- ١ كتاب اللهو والملاهي . (١٩) ، مروج الذهب (١٣٤ / ٤) ، المخصص (١٤٢ / ٢) وما بعدها ، (٥٤ / ٤) .
 - ٢ مقدمة ابن خلدون (٧٥٨) ، (دار الكتب - بيروت ١٩٦١ م) ، اللسان (١٣٥ / ١٥)
 - ٣ مروج الذهب (١٣٤ / ٤) ، كتاب اللهو والملاهي (١٩) .
 - ٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
 - ٥ راجع كتاب اللهو والملاهي وقارنه بكتاب مروج الذهب ، للمسعودي (١٣١ / ٤) وما بعدها .
 - ٦ اللسان (٣٥١ / ١٣) وما بعدها .
 - ٧ غرائب اللغة (٢٠٢) .
 - ٨ اللسان (٣٢٧ / ٤) ، (ذم) .

ويقال للمغنية (الكريئة) أيضاً^١ . وقد وردت اللفظة في شعر لبيد :

بصبوح صافية وجذب كريئة بموترٍ تَسَأَلُهُ إِيَّاهُمَا^٢

وذكر أن (الكريئة) المغنّية الضارية بالعود أو الصنج ، والضارية بـ (الكران) .
و (الكران) هو العود^٣ .

وذهب أهل الأخبار الى أن الغناء محدث في العرب ، أخذ من (الحداء) .
وكان الحداء في العرب قبل الغناء . وكان أول السماع والترجيع في العرب ، ثم
اشتق الغناء من الحداء . اشتقه (حباب بن عبد الله الكلبي) ، فعنى النصب^٤ .

وقد أُشير الى غناء النصب في كلام ينسب الى عبدالله بن عمر بن الخطاب ،
فذكر أنه قال : مرّاً بنا ابن الخطاب ، وأنا وعاصم بن عمر فعنى غناء النصب ،
فقال : أعيدا عليّ^٥ . وورد أن أنس بن مالك سمع أخاه البراء بن مالك يعنى ،
فقال : ما هذا ؟ قال : آيات عربية أنصبتها نصباً^٦ . مما يدلّ على أن غناء
النصب إنما ورد من هذا المعنى . كذلك أُشير الى الحداء في خبر ينسب الى ابن جريج ،
قال : سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء^٧ . وقد أخرج هذا
الخبر الحداء من الغناء .

وعرف بعض العلماء النصب : أنه غناء الرُكبان . وعرف أنه (العقيرة) ،
يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب . وعرف أنه ضرب من أغاني العرب . (وفي
حديث نائل ، مولى عثمان : فقلنا لرباج بن المغترف : لو نصبت لنا نصب العرب
أي لو تغنيت ، وفي الصحاح : لو غنيت لنا غناء العرب .) وكان رباح بن
المغترف يحسن غناء النصب ، وهو ضرب من أغاني العرب ، شبه الحداء ، وقيل :

-
- ١ العقد الفريد (٢٧/٦) ، كتاب اللهو والملاهي (ص ١٦) .
 - ٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٤ وما بعدها) ، (٢٩٥) (طبعة محمد مجيب الدين عبد الحميد) .
 - ٣ العقد الفريد (٢٧/٦) .
 - ٤ اللهو والملاهي (١٨) .
 - ٥ العقد الفريد (٨/٦) .
 - ٦ المصدر نفسه .
 - ٧ العقد الفريد (٩/٦) ، تاج العروس (٤٨٥/١) .

هو الذي أحكم من التشيد ، وأقيم لحنه ووزنه ^١ . وعرف النصب : انه ضرب من مغاني العرب أرق من الحداء ^٢ .

وقد أشار أهل الأخبار إلى أن العرب كانت (تتغنى بالركباني ، إذا ركبت الإبل ، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها ، فلما نزل القرآن أحب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يكون هجيراً هم بالقرآن مكان التغني بالركباني ، وأول من فرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة ، فورثه عند عبيد الله بن عمر ، ولذلك يقال قرأت العمري ، وأخذ ذلك عنه سعيد العلاف الإباضي) ^٣ . وذكر أن (عمر) سمع (عبد الرحمن بن عوف) وهو يتغنى وينشد بالركبانية ، وهو غناء يحدى به الركاب ^٤ .

والحداء ، هو من أقدم أنواع الغناء عند العرب ، يغنى به في الأسفار خاصة ، ولا زال على مكانته ومقامه في البادية حتى اليوم . ويتغنى به في المناسبات المحزنة أيضاً لملاءمة نعمته مع الحزن . وقد كان للرسول حادي هو (البراء بن مالك بن النضر الأنصاري) وكان حداءً للرجال ^٥ . وكان له حداء آخر ، يقال له (أنجشة الحادي) وكان جميل الصوت أسود ، وكان يحدو للنساء ^٦ ، نساء النبي ، وكان غلاماً للرسول ^٧ . وذكر أن النبي (قال لقوم من بني غفار) سمع حادهم بطريق مكة ليلاً ، فقال لهم : إن أباكم مضر نخرج إلى بعض رعائه فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه ، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح : وايداه ، وايداه ، فسمعت الإبل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت ، فاشتق الحداء ^٨ .

وذكر بعض أهل الأخبار « أن أول من أخذ في ترجيعه الحداء (مضر بن نزار) ^٩ »

-
- ١ اللسان (٧٦٢/١) ، (نصب) .
 - ٢ تاج العروس (٤٨٦/١) ، (نصب) .
 - ٣ اللسان (١٣٧/١٥) .
 - ٤ الروض (٢١٩/٢) .
 - ٥ الاصابة (١٤٣/١) ، اللسان (١٦٨/١٤) .
 - ٦ الاصابة (٦٧/١) ، الاستيعاب (١١٧/١) (حاشية على الاصابة) .
 - ٧ ارشاد الساري (٩٢/٩) .
 - ٨ العمدة (٣١٤ وما بعدها) ، المعارف (٢٤١) ، الروض الانف (٦٠/١) ، العقد الفريد (٢٧/٦) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) .
 - ٩ مروج الذهب (١٥٩/٤) .

فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه، وكان أحسن الله جرماً وصوتاً ، فأصغت الإبل اليه وجدّت في السير ، فجعلت العرب مثلاً لقوله هايدا هايدا يحملون به الإبل ^١ . وللأخباريين كلام آخر من هذا النوع عن الحداء ^٢ . يتفق كله في أن هذا النوع من الغناء كان من خصائص غناء مضر ^٣ .

وكان (عامر بن سنان الأكوخ بن عبدالله بن قشير الأسلمي) المعروف ب (ابن الأكوخ) رجلاً شاعراً ورائجاً ، وكان يحسن الحداء ، فطلب منه أصحاب الرسول أثناء سيرهم الى خيبر أن يخلو بهم . فسمع الرسول حداءه ^٤ . وهناك أخبار أخرى يفهم منها أن العرب لم تدخل الحداء في الغناء ، وإنما ذكرته معه ، على أنه باب خاص ^٥ . والعادة أن يجعل المسافرون معهم حادياً أو جملة حداء يخلدون بهم في السفر . وكان أبو هريرة أحد الصحابة المحدثين عن رسول الله ، يخلو لركب بسرة بنت غزوان ^٦ .

والحداء إذن ضرب مخصوص من الغناء ، ويكون بالرجز غالباً لأن طبيعة الرجز تلائم هذا النوع من الغناء ^٧ . ويذكر (المسعودي) أن الحداء كان في العرب قبل الغناء . وكان أول السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء ^٨ . فالحداء متقدم على الغناء إذن، وهو الباب الذي ولج العرب منه الى الغناء. والحداء ، هو في الواقع غناء أهل البادية ، وفي ارجاع أهل الأخبار أصله الى (مضر) أو غيره من الرجال صححة ، إذا اعتبرنا ان (مضر) أو غيره كناية عن الأعراب . لأن هذا النوع من الغناء مما يتناسب مع لحن البوادي وفنمها الحزينة البسيطة التي تطرب بها طبيعة البداوة نفس الأعراب . ولا زال غناء أهل البادية متأثراً بهذه الضربات من العزف ، التي تعزفها البادية للتخفيف عن كآبة

-
- ١ العمدة (٣١٤) .
 - ٢ المعارف (٢٤١) ، ، العمدة (٣١٤) .
 - ٣ العقد الفريد (٢٧/٦) ، الروض (٦٠/١) ، باوغ الارب (٣٦٩/١ وما بعدها) .
 - ٤ ارشاد الساري (٩٠/٩ وما بعدها) .
 - ٥ المعارف (ص ٢٣٢) ، اللسان (١٦٨/١٤) .
 - ٦ المعارف (ص ١٢٠) ، نهاية الارب (١٦٤/٤) .
 - ٧ ارشاد الساري (٨٨/٩) .
 - ٨ مروج (١٣٣/٢) ، (دار الاندلس) .

الطبيعة والتعبير عن الروح الحزينة التي تحملها هذه الطبيعة من نشوئها ونموها في هذه الفيافي الساحقة الشاسعة التي لا ترى حدودها العين ، والتي ترشق الأوجه برشقات من الرمال ، تسدّ العين ، حتى لا تتجاسر فتمدّ بصرها لتسرق سرّ هذه المحيطات ذات الأمواج المتفاوتة في الإرتفاع من تموجات الرمال .

وقد تخصص أناس من رجال ونساء بالغناء ، واتخذوه حرفة لهم يتكسبون بها . والمغنون المحترفون هم من سواد الناس ، ومن الرقيق . لأن من طبع الشريف والحرّ الابتعاد عنه . وقد احترف هؤلاء الغناء وتعيشوا عليه . فكانوا يدعون الى إحياء الحفلات في مقابل أجر يدفع لهم . وقد كان من بينهم من يغني بلغته كالرومية والحبشية ، ولهذا فلم يكن من المستبعد سماع غناء أجنبي في موضع مثل مكة أو يثرب لوجود رقيق فيه .

وقد تغني بشعر بعض الشعراء الجاهليين ، ومن هؤلاء شعر الشاعر (مرّة ابن الرواغ) . ويذكر أهل الأخبار ان (امرئ القيس بن حجر) ، كان يأمر قيانه أن يغني بشعره . وان قيان الملوك كن يغني به أيضاً^١ ، وقد كان النخاسون في الجاهلية يعلمون المغنيات الشعر ، للتغني به .

وقد كان أغنياء مكة والقرى الأخرى يملكون القيان ، ومنهم من كان يملك عدداً منهم . مثل (عبدالله بن جُدعان) . وكان (لمقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدي) ، قيتان تغنيان ، وكان بيته مألماً لشباب قريش ينفقون عنده ويشربون ويتهاونون يبقون على ذلك ليلي وأياماً^٢ .

ومن القيان : (هريرة) التي شيب بها (الأعشى) . وهي أمة سوداء ، لحسان ابن عمرو بن مرثد . ولها أخت اسمها (خليدة) : كانت قينة كذلك . وقد ورد في رواية أخرى ، أنها كانتا قيتين لـ (بشر بن عمرو بن مرثد) ، وكانتا تغنيانه النصب . وقدم بها اليامة ، لما هرب من (النعمان)^٣ . وذكر انه كان لـ (عائشة) جاريتان تغنيان بغناء بعث ، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعث^٤ .

-
- ١ الامدي ، المؤلف (ص ١٢٧) ، معجم الشعراء (ص ٢٨٢) .
 - ٢ شرح ديوان حسان (٤٧) (البرقوقى) .
 - ٣ الاغانى (١١٣/٩) .
 - ٤ اللسان (١٣٧/١٥) .

ومن أهل الخداء حاد يقال له (أنجشة) أشرت إليه قبل قليل ، وكان حسن الصوت . وهو من الصحابة . (وفي الحديث : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لأنجشة وهو يحدو بالنساء ، رفقا بالقوارير ... وكان أنجشة يحدو بين ركباهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن)^١ . وهو من أصل حبشي ، يكنى (أباماربة)^٢ . وكان يحدو بالنساء ، وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال^٣ . وربما كان على النصرانية قبل دخوله في الاسلام .

وكان (البراء بن مالك بن النضر الأنصاري) ، حسن الصوت كذلك . وكان يرتجز لرسول الله في بعض أسفاره ، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل . وذكر انه كان حادي الرجال . وكان يتغنى بالشعر . وقد شهد المشاهد مع رسول الله إلا بدرأ ، وله يوم اليمامة أخبار . واستشهد في أيام عمر^٤ . وكان من الشجعان^٥ .

ومما يلفت النظر ان الأخباريين حين يتحدثون عن مجلس طرب وشرب وغناء ، يذكرون أن صاحب المجلس أمر قيتين له بأن تغنيا له أولهم ، وذلك في الغالب ، ولم يذكروا قينة أو أكثر إلا في الأقل ، حتى يشعر القارئ أن العرف في ذلك الوقت أن تكون للسادة وللأشراف قيتين تغنيان تكونان في البيت بصورة دائمة . فلما اغتاض (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) مما قيل عنه ، وأراد الترفيه عن نفسه قبل أن يقتل نفسه (دعا قيتين له فشرب وغنتاه)^٦ . وكان (عبد الله ابن جُدعان) إذا أراد سماع الغناء أمر قيتين له تسميان (الجرادتين) بالغناء^٧ .

ولا يستبعد استخدام الجاهليين آلات الطرب والغناء في معابدهم وفي أعيادهم . فقد كان الساميون كالعبرانيين يستعملون أنواع آلات الموسيقى في معابدهم وفي أعيادهم تقرباً إلى آلهتهم^٨ . وقد وصلت إلينا أسماء بعض آلات الطرب التي استعملها الجاهليون ولكن معارفنا لا تزال مع ذلك قليلة ضعيفة . وستزيد ولا شك

- ١ اللسان (٨٧/٥ وما بعدها) .
- ٢ الإصابة (٨٠/١) ، (رقم ٢٦١) .
- ٣ الاستيعاب (١٢١/١ وما بعدها) ، (حاشية على الإصابة) .
- ٤ الإصابة (١٤٧/١) ، (رقم ٦٢٠) .
- ٥ الاستيعاب (١٤١/١ وما بعدها) .
- ٦ شرح ديوان ليبيد (ص ٦١) .
- ٧ الاغانى (٢/٨) ، البيان والتبيين (١٧/١) (لجنة) .
- ٨ A Relig. Ency., Vol. III, p. 1598.

متى قام الآثاريون بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في مواضع الآثار في مختلف الأنحاء . أما العرب في العراق وفي بلاد الشام ، فقد تأثروا بالغناء الأعجمي ، واستعملوا آلات الطرب المعروفة عند الفرس واليونان ، وسمعوا الغناء بالفارسية والرومية واستحسنوه ، بل استحسنه أناس من عرب الحجاز أيضاً . سمع حسان بن ثابت غناء (راتقة) ، فلما عاد الى بيته ، تذكر ليلة قضاها في الجاهلية مع (جبلة ابن الأيهم) ، لم ينسها قط ، قال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن اليه اياس بن قبيصة . وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب ، فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بطن بالثلج ، واتى هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء بفراء الفسك وما اشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلاّ وخلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه ، هذا مع حلم عن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة »^١ .

وإذا كان الغناء للطرب بوجه عام ، فإن هنالك نوعاً آخر من الغناء هو (الترنيمة) ، وهو تطريب الصوت ، ويستخدم في الغالب في التلاوة ، أي تلاوة الأدعية والتراتيل الدينية. فقد كان الجاهليون يرتلون أغانيهم الدينية أمام أصنامهم ، كما فعل ذلك اليهود والنصارى ويترنمون بها . وتصحب هذه الترانيم آلات موسيقية تعزف الألحان المناسبة الموافقة لها .

وذكر علماء العربية أن (الرنم) المغنّيات المجيدات ، والرنم الصوت . والرنيم والترنيم ترجيع الصوت وتطريبه^٢ . وعرف (الترجيع) بـ (ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به) . وقيل : (الترجيع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت)^٣ . وقد كان الجاهليون يرجعون الشعر ، بأن يقرأونه على الألحان والتطريب والايقاع ليؤثر في السامعين .

-
- ١ الاغاني (١٤/١٦) .
 - ٢ تاج العروس (٣٢٠/٨) ، (رنم) ، ارشاد الساري ، القطلاني (٤٨٠/٧) وما بعدها (اللسان (٢٥٦/١٢) .
 - ٣ تاج العروس (٣٥١/٥) ، (رجع) .

أما المناسبات المحزنة كالموت والكتابة ، فقد كانوا يستعملون فيها نغمات حزينة وهادئة للتخفيف من شدة الحزن والكتابة والألم . وقد كانت لهم في ذلك الحان وأوزان ونغم .

وأما (الهزج) ، فالخفيف الذي يرقص عليه ، ويمشي بالدفّ والمزمار ، فيطرب ويستخف الحليم^١ . وذكر أن الهزج من الأغاني ما فيه ترنم ، وصوت مطرب ، وقيل : هو صوت فيه بحج ، وصوت دقيق مع ارتفاع . وكل كلام متدارك متقارب في خفة هزج^٢ . فهو الخفيف المطرب من الغناء .

وكانت المناسبات المفرحة مثل الزواج تقترن بالعزف والغناء. روي أن رسول الله لما كان غلاماً يرعى غنماً ومعه غلام من قريش يرعى معه كذلك قال له : « لو أنك أبصرت غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب ، قال : أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دارٍ من ديار مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير . فقلت ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوج فلانة بنت فلان . فجلست أنظر إليهم^٣ . وذكر أن من عادة أهل مكة أن يفعلوا ذلك عند الزواج. وفعل أهل يثرب ذلك أيضاً في مثل هذه المناسبات وفي مناسبات الفرح الأخرى^٤ .

الرقص :

والرقص وجه آخر من وجوه التسلية والتفريج عن النفس . يرقصون في المناسبات ، مثل الأعراس والأفراح الأخرى . وهو في الغالب ارتفاع وانخفاض ، وقد يكون ذلك هو الذي حمل علماء اللغة على تفسير الرقص أنه ارتفاع وانخفاض^٥ . والراقصون هم من الشباب في الغالب ، أما الشيوخ ، فكانوا لا يرقصون ، لعدم ملاءمة الرقص مع جلال السن .

- ١ العمدة (٣١٤/٢) ، كتاب اللهو والملاهي ، لابن خرداذبه (ص ١٦ وما بعدها) ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) .
- ٢ تاج العروس (١١٦/٢) ، (هزج) .
- ٣ نهاية الارب (١٤٥/٤) .
- ٤ رغبة الآمل من كتاب الكامل (٩٠٨/٦) ، (للمرصفي) .
- ٥ اللسان (٤٢/٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٣٩٩/٤) ، (رقص) .

وذكر علماء اللغة أن من الرقص نوع يقال له (الدرقلّة) . وذكر بعض آخر أن (الدرقلّة) الرقص . « قال محمد بن إسحاق : قدم فتية من الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدرقلون ، أي يرقصون » . وقيل : الدرقلّة : لعبة للعجم معربة^١ . وهي من الحبشة على بعض آراء علماء اللغة . ونظمت بـ (الدرقلّة) كذلك . وذكروا أن الرسول (مرّ على أصحاب الدرقلّة فقال : جدّوا يا بني أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة)^٢ . قيل إنّ الدرقلّة ضرب من الرقص ولعبة للعجم معربة .

وقد عرف الحبش بحبهم للرقص . وكان أهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز إذا أرادوا الاحتفال بعرس أو ختان أو أية مناسبة مفرحة أخرى أحضروا الحبش للرقص والغناء على طريقتهم الخاصة . وورد في الحديث أنه قال للحبشة دونكم يا بني أرفدة . وقيل هم جنس من الحبشة يرقصون . وقيل (أرفده) لقب لهم هو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به^٣ .

وقد كان الرقص عند الشعوب السامية نوعاً من أنواع التعبير عن الفرح والشكر تجاه آلهتهم^٤ . ويدخل في جملة الشعائر الدينية . ولا يستبعد أن يكون الجاهليون مثل غيرهم قد رقصوا لآلهتهم في المناسبات الدينية ، تعبيراً عن شكرهم للآلّة . ولكن معارفنا عن ذلك قليلة جداً ، فلا نجد في الكتابات الجاهلية أية إشارة إليه ، أما أخبار أهل الأخبار عن الرقص عند الجاهليين ، فهي قليلة . ولا أستبعد أن يكون السعي بين الصفا والمروة كان رقصاً في الأصل فكان الساعون يرقصون ويغنون أغاني دينية ، في تمجيد رب البيت والتقرب إليه . كما كانوا يرقصون في المعابد الأخرى .

ويعدّ يوم وصول الملوك والأمراء والسادات الى مكان ما ، يوماً مشهوداً يجلب الفرح والسرور الى قلوب الناس ، ويعطي ذلك اليوم بهجة وسروراً . وكانوا يستقبلون كبار الوافدين عند قدومهم بأصناف اللهو . ويخرج (المقلسون) بالسيوف والريحان وبالدفوف والغناء . ولذلك قيل (القلس) و (التقليلس) : الضرب

١ اللسان (٢٤٤/١١) .

٢ اللسان (٢٤٤/١١) .

٣ اللسان (١٨٣/٣) ، (رقد) ، تاج العروس (٣٥٦/٢) ، (رقد) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٩/١) ، (رقص) .

بالدفّ والغناء . و (القلس) : الذي يلعب بين يدي الأمير . ولما قدم (عمر)
الشأم لقيه القلسون بالسيوف والريحان . والقلس : الرقص في غناء ، وقيل هو
الغناء الجيد^١ .

ألعاب مسلية :

وقطع الجاهليون وقتهم ببعض الألعاب المسلية ، مثل (الرد) وقد أشير
إليه في الحديث بـ (الردش) وبـ (الرد) . وذكر بعض العلماء أن (الرد)
هو (الكوبة) ، بلغة أهل اليمن^٢ . وأشير إليه في حديث أهل الأخبار عن
(امرئ القيس الكندي) وعن الناعي الذي أوصل الخبر إليه ، فقالوا : « فوجده
مع نديم له يشرب الخمر ، ويلعبه بالرد ، فقال له : قتل حجر ، فلم يلتفت
إلى قوله ، وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب ، حتى
إذا فرغ ، قال : ما كنت لأفقد عليك دستك^٣ ، والنست مصطلح فارسي ،
أي ما كنت لأفقد عليك لعبك .

وكان في الجاهلية إذا خاب قرح أحدهم ولم ينل مراده قيل تمّ عليه النست . وقيل
النست : هو دست القمار ، كان في اصطلاح الجاهلية . وفلان حسن النست :
شطرنجي حاذق^٤ .

واللعب اللهو والتسلية ، وهو أنواع . كما ان لكل عمر نوع من اللعب يليق
به . و (التلابة) و (التلعب) الكثير اللعب ، والكثير المزح والمداعبة .
و (الشطرنج) لعبة ، والرد لعبة كذلك ، وكل ملعوب به فهو لعبة . و (اللعبة)
الأحمق الذي يسخر به ويلعب ويتردد عليه^٥ .
ويعبر عن اللهو واللعب بلفظة (الديدن) ، و (الددن) ، و (الدد) ،

-
- ١ اللسان (٦ / ١٨٠) ، (صادر) ، (قلس) ، تاج العروس (٤ / ٢٢١) وما بعدها .
• (قلس)
 - ٢ صحيح مسلم (٢ / ١٩٩) ، الجواليقي (ص ٣٣١) ، تنوير الحوالك ، (٢ / ٢٣٧) ،
اللسان (٣ / ٤٢١) .
 - ٣ الاغانى (٨ / ٦٥) (طبعة ساسي) غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .
 - ٤ تاج العروس (١ / ٥٤٣) ، (دست) .
 - ٥ تاج العروس (١ / ٤٧١) ، (لعب) .

و (اللدا) ، و (ديد) ، و (ديدان) ، و (الديدبون) . وفي الحديث :
(ما أنا من دد ولا الددُ مني) . أي ما أنا في شيء من اللهو واللعب . وورد
لعديّ بن زيد العبّاديّ :

أيها القلب تعلل بددن إن همّي في سماع وأذن

وذكر أن الدد : هو الضرب بالأصابع في اللعب ، وأن الديدبون : اللهو^١ .

وللأطفال ألعاب تتناسب مع سنهم ، منها : (الجراح) ، وهي سهم يلعب
به ، يجعلون مكان زجّه طيناً^٢ ، و (البقيري)^٣ ، ولعبة (الغراب) ، وقد
ذكر أن صبياناً كانوا يلعبونها ليلاً^٤ . و (الكعاب) و (الفيال) ، وهي
لعبة كانوا يلعبون بها ، يجمعون تراباً ويخبثون فيها خبثاً ، ويقولون لصاحبه في
أي الجانبين هو^٥ .

ومن ألعاب الصبيان لعبة يقال لها (الدخرجاء) و (الدحيرجاء) ، وفيها
قال الشاعر :

عليك الدحيرجاء فاتبع صحابها سيكفيك زين الحرب أروع ماجداً

ومن ألعاب الصبيان ، لعبة (عظم وضاح) (عظيم وضاح) ، أن يأخذ
بالليل عظماً أبيض ، فيرمونه في ظلمة الليل ، ثم يتفرقون في طلبه ، فنس وجده
فله القمير . وذكر أن من وجدته يركب الفريق الآخر من الموضع الذي وجدوه
فيه إلى الموضع الذي رموا به منه . وورد في الحديث أن النبي لعب وهو صغير
بعظم وضاح^٦ .

و (البُقَيْرِي) : أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله ، ثم

-
- ١ اللسان (١٣/١٥١ وما بعدها) ، (ددن) ، تاج العروس (٩/١٩٨) ، (الددن) .
 - ٢ الاغانى (٨/٧٥) (طبعة ساسي) .
 - ٣ شمس العلوم الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٨٠) .
 - ٤ المعارف (ص ١٢١) .
 - ٥ شرح ديوان لبيد (ص ٨٠) .
 - ٦ الاشتقاق (٢/٣٠٦) .
 - ٧ الحيوان (٦/١٤٥) ، (هارون) .

يقول لصاحبه : اشته في نفسك ، فيصيب ويخطيء . وذكر أنهم يأتون الى موضع قد خبيء لهم فيه شيء ، فيضربون بأيديهم بلا حفر يطلبونه^١ .

والخطرة ، أن يعملوا مخراقاً ، ثم يرمى به واحد منهم من خلفه الى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به اليهم ، فإن أخذوه ركبوهم^٢ . وأما (الدارة) ، ويقال لها (الحراج) ، أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم أخرجوا ما في يدي . و (الشعمة) ، أنه يمضي واحد من أحد الفريقين بغلام فينتحون فاحية ثم يقبلون ، ويستقبلهم الآخرون ، فإن منعوا الغلام حتى يصيروا الى الموضع الآخر فقد غلبوه عليه ، ويدفع الغلام اليهم ، وإن لم يمنعوه ركبوهم ، وهذا كله يكون في ليالي الصيف ، عن غب ربيع نخصب^٣ .

وسابق الأطفال والشبان بعضهم بعضاً . سابقوا على الخيل وسابقوا على الأقدام فكان السابق يفخر على المسبوقين ، وربما خاطروا في السباق ، فيأخذ السابق (الخطر) ، وهو ما جعلوه رهناً للسابق . وصارعوا . واعتبروا المصارعة رياضة وفخراً . فالقوي يصرع الضعيف . ولهذا كان المصارع الذي لا يصرع يتباهى ويفخر بنفسه على غيره . وقد سابق رسول الله بنفسه على الأقدام^٤ . ويقال للمصارعة (المراوغة) ، لما فيها من مراوغة الواحد منها للآخر ، للتغلب عليه^٥ . وقد صارع النبي (ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب) ، فصرعه مرتين . (وكان شديداً . يحكى أنه كان يقف على جلد بعير لين جديد حين سلخه ، فيجذبه من تحته عشرة فيتمزق الجلد ولا يتحرك هو عن مكانه)^٦ .

ومن ألعاب الصبيان (الطين) ، وهو خط مستدير يلعب به الصبيان^٧ . و (الشعارير) وهي من لعب الصبيان^٨ . وأما البنات فالتماثيل الصغار التي يلعب

- ١ الحيوان (١٤٥/٦) ، (هارون) .
- ٢ الحيوان (١٤٥/٦) وما بعدها ، (هارون) .
- ٣ الحيوان (١٤٦/٦) ، (هارون) .
- ٤ زاد المعاد (٤١/١) .
- ٥ تاج العروس (١٤/٦) ، (روغ) .
- ٦ تاج العروس (٢١٩/٩) ، (ركن) .
- ٧ اللسان (٢٦٣/١٣) ، تاج العروس (٢٦٧/٩) ، (طين) .
- ٨ اللسان (٤١٦/٤) ، تاج العروس (٣٠٥/٣) ، (شعر) .

بها . وفي حديث عائشة : كنت ألعب مع الجواربي بالبينات^١ . و (الدخندح) لعبة للصبية يجتمعون لها فيقولونها ، فمن أخطأها قام على رجل وحجل سبع مرات^٢ . ومن ألعاب الغلمان (الحكمة) ، وهي لعبة لهم يأخذون عظماً فيحكونه حتى يبيض ثم يرمونه بعيداً فمن أخذه فهو الغالب^٣ . واللعبة التمثال يلعب به الصبيان . و (الملعبة) ثوب بلا كم يلعب فيه الصبي^٤ .

وعرفت ألعاب الشدة والقوة عند الجاهليين . ومن هذه لعبة (الربيع) ، وهي رفع الحجر باليد وشيله امتحاناً للقوة . وفي الحديث انه مرَّ بقوم يربعون حجراً ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا الاشداء^٥ .

القمار :

و (القمار) من الألعاب المتفشية كثيراً بين الجاهليين ، ولم يكن الباعث عليه التسلية واللهو في الغالب ، وإنما كان طمعاً في الربح . ويسمى (الميسر) في العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وقد أشير اليه في الشعر الجاهلي . وقد حرمه الاسلام ، ونزل الأمر بالنهي عنه في القرآن الكريم . ويذكر أهل الأخبار أن أول من حرّم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس التميمي) ، ثم جاء الاسلام بتقريره^٦ .

وذكر أن كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز . وعرف الميسر : انه القمار بالقداح في كل شيء^٧ . وقامر الرجل راهنه^٨ . وذكر أن الياسرين : الذين يلون قسمة الجوز ، والميسر الجوز نفسه ، سُمّي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكانه موضع التجزئة ، وهذا الأصل في الياسر ، ثم يقال للضاربين بالقداح

-
- ١ تاج العروس (٤٨/١٠) ، (بنى) .
 - ٢ تاج العروس (١٣٥/٢) ، (دح) .
 - ٣ تاج العروس (١٢٢/٧) ، (حك) .
 - ٤ تاج العروس (٤٧١/١) ، (لعب) .
 - ٥ تاج العروس (٣٣٨/٥) ، (ربح) .
 - ٦ صبح الاعشى (٤٣٥/١) .
 - ٧ اللسان (٢٩٨/٥) .
 - ٨ اللسان (١١٥/٥) .

والمقامرين على الجزور : الأيسار^١ . وذكر أن اشتقاق (الميسر) إما من اليسر لأنه أخذ مال الرجل ييسر وسهولة من غير كدٍ ولا تعب ، أو من اليسار لأنه سلب يساره^٢ .

وقد أَلَف بعض العلماء كتباً في الميسر، منها كتاب أَلَفَه (ابن قتيبة الدينوري) وكتاب أَلَفَه (الزبيدي) دعاه (نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقдах)^٣ .

وآراء العلماء متباينة في الميسر وفي المراد منه ، وفي طريقته . ويظهر أن قسماً ممن كان يلعب الميسر لم يكن يلعبه ابتغاء الكسب ، وإنما كان يلعبه للتسلية والترفيه عن الآخرين ، وذلك باعطائه ما يكسبه للمحتاجين والفقراء ، ولذلك اقتخروا بعملهم هذا وعدوه مفخرة من مفاخر العرب ، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء^٤ . فيعطون اللحم للمحتاج اليه ، إذ عيب من كان يأخذ نفسه ، وعدوه عاراً^٥ . وقد اقتخروا به في شعرهم^٦ ، وملحوا من يأخذ القдах وعابت من لا ييسر ودعته (البرم)^٧ ، وذلك لبخله وظنه بماله من أن يذهب إلى غيره ، مع أن الناس في حاجة شديدة اليه .

وإلى لعب الموسرين الأيسار في الشتاء لمساعدة ذوي الحاجة ، أشار طرفة في شعره إذ قال :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبدأء الجزور^٨

وأما القسم الآخر ممن كان ييسر ، فكان ينبغي الكسب والمال ، لذلك كان يقامر بكل ما يملك في سبيل الحصول على المال للمياسرة . روي عن (ابن عباس) أنه (كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله) في سبيل

-
- ١ اللسان (٢٩٨/٥) وما بعدها .
 - ٢ بلوغ الارب (٥٣/٣) .
 - ٣ بلوغ الارب (٦٤/٣) ، تاج العروس (١/ج١) (الكويت) .
 - ٤ بلوغ الارب (٥٤/٣) وما بعدها .
 - ٥ بلوغ الارب (٦٠/٣) .
 - ٦ بلوغ الارب (٥٧/٣) .
 - ٧ بلوغ الارب (٦٥/٣) .
 - ٨ اللسان (٢٩٨/٥) ، بلوغ الارب (٦٠/٣) .

المياسرة^١ . وكان يلجأ إلى الغش والخداع والسرقة واضاعة العيال ، ولأضراره هذه حرمة الاسلام^٢ .

وقد يسرون على الأسرى ، فقد وقع (سحيم بن وثيل الربوعي) في سباء ، فضرب عليه بالسهام ، فقال في ذلك :

أقول لهم بالشعب إذ يسروني ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم^٣

وصفة الميسر : أن القوم كانوا يجتمعون فيشترتون الجزور بينهم ، فيفصلونها على عشرة أجزاء يُؤتى بالحُرْضَة وهو رجل يتأله عندهم لم يأكل لحماً عندهم قط بثمان ، ويؤتى بالقُداح وهو أحد عشر قِدْحاً ، سبعة منها لها حظ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت ، بقدر ما لها من الحظ إن فازت ، وأربعة ينقل بها القُداح ، لا حظ لها إن فازت ولا غرم عليها إن خابت .

فأما التي لها الحظ : فأولها الفذ في صدره حز واحد ، فإن خرج أخذ نصيباً ، وإن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب ، ثم التوأم ، له نصيبان إن فاز ، وعليه ثمن نصيبين إن خاب ، ثم الضريب ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم المجلس وله أربعة ، ثم النافيس وله خمسة ، ثم المسبل ، وله ستة ، ثم المُعلّي وله سبعة . والمسبل يسمى : المصفح ، والضريب يقال له : الرقيب .

وأما الأربعة التي ينفصل بها القُداح ، فهي : السفيح ، والمنيح ، والمضعف ، والوغد .

وقيل : إن للمنيح موضعين : أحدهما لا حظ له ، والثاني له حظ ؛ فكأنه الذي يمنح الحظ ، واستدلوا على ذلك بقول عمرو بن قبيصة :

بأيديهم مقرومة ومغالق يعود بأرزاق العيال منيحها^٤

فيؤتى بالقُداح كلها وقد عرف كل ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا

-
- ١ بلوغ الأرب (٥٣/٣) وما بعدها .
 - ٢ بلوغ الأرب (٦٥/٣) ، اللسان (٣٠٠/٥) ، اليعقوبي (٣٠٠/١) (طبعة هوتسما) .
 - ٣ اللسان (٢٩٨/٥) ، بلوغ الأرب (٥٤/٣) .
 - ٤ نهاية الأرب (١١٧/٣) وما بعدها .

سبعة ، لا يكونون أكثر من ذلك ، فإن تقصوا رجلاً أو رجلين ، فأحب الباقون ان يأخذوا ما فضل من القداح ، فيأخذ الرجل القدح والقدحين فيأخذ فوزهما إن فازا ، ويغرم عنها إن خابا ويدعى ذلك ، التميم . قال النابتة :

اني أتمم أيساري وأمنحهم من الأيادي واكسوا الجفنة الأدماء

فيعمدون إلى القداح ، فتشدّ مجموعة في قطعة جلد ، ثم يعمد إلى الخرضة فيلف على يده اليمنى ثوباً لثلاثاً يجد مس قدح له في صاحبه هوى ، فيحاييه في اخراجه ، ثم يؤتى بثوب أبيض يدعى المجول ، فيسط بين يدي الخرضة ، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى الرقيب ، ويدفع ربابة^١ القداح إلى الخرضة وهو محوّل الوجه عنها ، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب ، فينكسر القداح بشماله ، فإذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب فإن كان مما لا حظ له ردّه إلى الربابة ، فإن خرج بعده المسبل ، أخذ الثلاثة الباقية ، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى ، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب ، فرمما نحرروا عدة جزور ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً ، وإنما الغرم على الذين خابوا ولا يحل للخائين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً، فإن فاز قدح للرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطار فعلوا ذلك به^٢ .

و (الخرضة) ، الذي يضرب للأيسار بالقداح لا يكون إلا ساقطاً ، يدعونه بذلك لردّالته ، وعرف انه من المقامرين ، ومن شأنه المعروف له انه الرجل الذي لا يشتري اللحم ولا يأكله بثمن إلا أن يجده عند غيره أو يهدى له الأيسار^٣ . ويظهر من هذا الوصف ومن أوصاف أهل الأخبار له ، ومن قول للطرماح في وصف حمار ، فتعرض بهذه المناسبة لذكر الخرضة :

ويظلُّ المليء يوفى على القرّ ن عنوباً كالخرضة المستفاض^٤

- ١ الربابة : ما يجمع فيها القداح .
- ٢ نهاية الارب (١١٨/٣) وما بعدها .
- ٣ اللسان (١٣٦/٧) ، بلوغ الارب (٦١/٣) ، صبح الاعشى (٤٠٠/١) وما بعدها .
- ٤ اللسان (١٣٥/٧) .

ان الناس كانوا ينظرون إلى (الحرضة) نظرة استصغار وازدراء ويعرف أيضاً
بـ (الضرب) .

ويسمى (الرقيب) (رابىء الضرباء) يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبي لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه ، ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به . ثم يفيض الضرب بالقداح ، فإذا نشز منها قدح استسله الحرضة من غير أن ينظر إليه ، ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه إلى صاحبه ، فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فإن شاء بعد ذلك أمسك ، وإن شاء أعاد السهم على (خطار) آخر ، وهو سبق يراهن عليه ، وهو ما يوضع بين أهل السباق . واعدة السهم تسمى الثانية . وقد وصفت (القداح) بأنها عيدان من نبع ، قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول . وهي عشرة من رواية أخرى غير الرواية المقدمة . هي : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . وللأول سهم إن فاز ، وفوزه خروجه وعليه عزم سهم إن خاب ، وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه إلى المعلى ، وهو السابع ، وله سبعة وعليه سبعة يفرض في كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة أحر أغفال ليس فيها خروز ولا لها علامات ليكون ذلك أنقى للتهمة وأبعد من المحاباة . وهي : المنيح والسفيح والوغد، وتسمى القداح مغالق ، لأنها تغلق الرهن إذا ضربوا بها^١ .

وإذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وطاقته ورياسته ، فمنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له ، فإن خاب غرم سهماً ، وإن فاز أخذ سهماً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالي بالغرم إن خاب وينال النصيب الأوفر إن فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام ، فيأخذ ما فضل من القداح ، ويقول للأيسار قد تمتكم^٢ .

ويقع الغرم أي ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة : أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . ولجملة هذه القداح ثمانية عشر سهماً ، فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً . ويلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان

-
- ١ بلوغ الارب (٦١/٣) وما بعدها .
 - ٢ بلوغ الارب (٥٨/٣) وما بعدها .
 - ٣ بلوغ الارب (٥٩/٣) .

نصيبه من اللحم لو فاز قلدحه ، فإن لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى ، أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية ، وهي تنمة الجزور ، وكانت الغرامة على من لم يخرج قلدحه ، وهم أصحاب القداح الخمسة التي خابت . وقد ينحرون جزوراً آخر لأن في القداح التي خابت نصيباً يزيد على نصيب ما بقي من اللحم . وإن فضل من أجزاء اللحم شيء وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشرة ، وهم أهل الضعف وسوء الحال^١ .

الأسفار :

ومن أيام الفرح والسرور عندهم يوم العودة من السفر ومن حقهم أن يفرحوا به . فقد كان السفر شاقاً خطراً في تلك الأيام ، ولا سيما إذا طال . فقد يتعرض المسافر فيه للهلاك والموت جوعاً أو عطشاً ، عدا ما يتعرض له من السلب والنهب . لذلك كانوا يحاولون جهدهم أن يسافروا جماعة وقوافل يتعاونون ويشد بعضهم أزر بعض . وكانوا إذا عادوا فرح أهلهم بعودتهم سالمين ، وتلقوهم بالبشر والتهنئة ، وذبحوا الذبائح ووزعوا لحومها بين الأصدقاء والفقراء ، وأولموا اللواتم للمهتسين والجيران . وكان أول ما يفعله المسافر إلى مكة عند عودته إلى مدينته الذهب إلى (البيت) للطواف به ولشكر رب البيت على حمايته له واغداقه نعمته عليه بالعودة سالماً .

وقد عثر السياح والمقربون عن الآثار في جزيرة العرب على كتابات جاهلية توصل فيها أصحابها إلى آلهتهم لترعاهم في سفرهم ، وتحفظهم من لصوص الطرق ومن كل شرّ وسوء . وقد تعهدوا فيها بتقديم نذور لمعابدها بعد عودتهم سالمين غانمين . كما عثر على كتابات فيها حمد وشكر لتلك الآلهة لأنها أجابت دعوة أصحاب الكتابات ، فحمتهم ورحمتهم في سفرهم ويسرت لهم العودة سالمين .

وكانوا إذا أرادوا السفر عمدوا إلى فعل الجاهلية في زجر الطير والاستقسام بالأزلام لاختيار الطالع ، فإذا خرج سهم (الأمر) فسروه بالأمر بالسفر ، وإذا

١ بلوغ الارب (٦٢/٣ وما بعدها) .

خرج (النهي) (الناهي) ، انتهوا عنه^١ .

وكانوا إذا خرجوا الى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ، ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع اليه^٢ .

وللمهتئين بسلامة العودة ، تعابير خاصة يقولونها للمسافرين حين السفر وحين العودة . وفي جملة ما كانوا يقولونه للإياب من السفر : (سفر رجيع) . وسفر رجيع : مرجوع فيه مراراً^٣ .

ومن مناسبات الفرح والسرور ، الإبلال من مرض والشفاء منه . فالشفاء من المرض عودة الى الحياة وولادة من جديد ، وعمر يضاف الى عمر المريض . لذلك كان المرضى يتوسلون الى آلهتهم أن تمنّ عليهم بالصحة والشفاء والعافية مما ابتلوا به ، ويعدونّها بتقديم نذر إن أعادت اليهم صحتهم وعافيتهم . وقد حصل المنقبون على ألواح كثيرة كتب فيها شكر وحمد وثناء على الآلهة لأنها أجابت دعوة صاحب الكتابة ، فعافته من مرضه ، ومننت عليه بالصحة والعافية ، وأبرأته مما أصيب به من أمراض أو جروح في معارك ، فهو يوفي بوعدده لها ويقدم لها نذره ويحمدها على نعمها عليه . وقد يولون وليمة يقولون لها (البلة) ، و(البلة) العافية من المرض^٤ .

ويعود أهل الجاهلية مرضاهم ، للإعراب لهم عن تمنياتهم لهم بالشفاء العاجل والابلال من المرض ، كما يعودونهم بعد الشفاء لتهنتهم على عودة الصحة اليهم ، وشفائهم مما ابتلوا به من مرض . ويقع (العود) من الرجال والنساء^٥ . ويقال لمن حسنت حاله بعد الهزال ، ولمن شفي من مرض (يلّ الرجل) ، من مرضه و (يلّ من مرضه) ، و (أبلّ)^٦ .

-
- ١ ابن قيم الجوزية ، كتاب الهدى النبوي (٣١/٢) ، (في هديه صلى الله عليه وسلم في اذكار السفر وآدابه) .
 - ٢ بلوغ الارب (٣٢٤/٢) .
 - ٣ تاج العروس (٣٥١/٥) ، (رجيع) .
 - ٤ تاج العروس (٢٣٣/٧) ، (بلل) .
 - ٥ تاج العروس (٤٣٦/٢) ، (عود) .
 - ٦ تاج العروس (٢٣٣/٧) ، (بلل) .

مواسم الربيع :

والربيع مكانة خاصة في نفوس العرب ، حتى صار في مترلة العيد عندهم .
ففيه يطيب الجو ، ويرق الهواء ، وتكسى الأرض بأكسية خضراء ويبسط منمقة
مزرکشة ، تسحر مناظرها الألباب ، تسير عليها الإبل بفخر وإعجاب ، تقضم
ما تجده فوقها من طعام . فتشبع وتسمن بعد قفر وجوع وضنك . وفيه يكثر
مال العرب ، ومال العرب لإبلهم ، وتكثر مواشي الحضر ، من غنم وبقرة .
وتكون سنة الربيع للعربي سنة يمن وبركة . وسنة انحباس الغيث وانقطاع المطر ،
سنة يؤس وشقاء .

ولا يفرح العربي بشيء فرحه بالغيث وبظهور الربيع ، أي موسم اخضرار
الأرض واكتسائها ببساط سندسي يبهز العين ويؤثر في النفس فيجعلها فرحة
مستبشرة ، فيخرج السادات إلى المرباع ، يتلذذون هناك بمنظر الربيع وبرؤية
أموالهم وهي فرحة مستبشرة ترعى فيه ، فيزيد بذلك مالههم ويكثر لبن نوقهم
وتنشط لإبلهم في انجاب الولد . ويتوجه سادات القبائل إلى المرباع الجيدة ، التي
يجود فيها الربيع ، وليس في بلاد العرب مربع كالدنهان^١ . ويترك الملوك قصورهم
على ما فيها من وسائل الراحة ، للنهاب إلى البادية ، للاستمتاع بما خلقتة الطبيعة
هناك ، وبما أوجدته من صنعة متقنة وفن عجيب لا يضاهى . يقون هناك أياماً
وأسابيع ، يجددون فيها عهدهم بالبوادي وبما فيها من هواء صحيح سليم ، يعطي
الجسم نشاطاً ، ويبعث فيه (اكسير) الحياة .

البغاء :

البغاء الفجور . و (البغي^٢) الأمة فاجرة كانت أو غير فاجرة ، والجمع
البغايا . والزنا هو الفجور ، وهو عيب كبير عند العرب ، فلا تقر به الحرة .
أما الرجال ، فلا يرونه عيباً ، بل قد يتجسس بعضهم به ، لأنه من أمارات
الرجولة . وقد كانوا يذهبون اليهن ويتصلون بهن في مقابل أجر ، وكن من الإماء ،

١ تاج العروس (٢٠٥/٩) ، (دهن) .

لأن المرء في الحياة لبطنه وفرجه . ومنه المثل : « المرء يسعى لغاريته » أي يكسب لبطنه وفرجه^١ .

وعرفت (البغي) ب (القحبة) . قيل لها قحبة لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها ، وهو سعالها^٢ . فقد كان من عادة (قحبة) الجاهلية أن تسعل أو تتنحج ، تراود بذلك عن نفسها ، وتشعر الرجل أنها حاضرة للفجور إن أراد ذلك ، فيتفق معها .

و (المسافحة) ، المزانة لأن الماء يصب ضائماً . و (السفاح) أن تقسم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح ، وفي الحديث : « أوله سفاح وآخره نكاح » . وهي المرأة تسافح رجلاً مدة فيكون بينها اجتماع على فجور ، ثم يتزوجها بعد ذلك . وكان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل المرأة قال : أنكحيني ، فإذا أراد الزنا ، قال : سافحيني^٣ .

ويقال للزنا : الفاحشة ، والفاحشة الزانية وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي وكل ما نهى عنه ، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال^٤ . فاللفظة عامة تتناول الفحش الذي هو الزنا كما تتناول غيره من الأعمال والحاصل القبيحة . ويقال للبغي وللأمة (تزني) . ويقال لابنها (ابن تزني) و (ابن درزة)^٥ .

ولما نزلت الآية : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبائعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم »^٦ ، وفرغ رسول الله من بيعة الرجال بمكة واجتمع إليه نساء من قريش فيهن : (هند بنت عتبة) وأخذن يبائعن الرسول ، فلما وصل إلى قوله تعالى : (ولا يزنين) ، فقالت : يا رسول الله وهل تزني الحرة^٧ ؟

- ١ تاج العروس (١٧٧/١٠) ، (سعى) .
- ٢ تاج العروس (٤٢١/١) ، (قحب) .
- ٣ تاج العروس (١٦٤/٢) ، (سفح) ، تفسير الطبري (١٤/٥) .
- ٤ تاج العروس (٣٣١/٤) ، (فحش) .
- ٥ تاج العروس (١٥٣/٩) ، (ترن) .
- ٦ سورة الممتحنة ، الآية ١٢ .
- ٧ تاريخ الطبري (٦٢/٣) ، (فتح مكة) ، تفسير الطبري (٥٠/٢٨) .

وفي القرآن الكريم آيات ذكرت الزنا في الجاهلية ، من ذلك آية سورة النور :
 « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » ،
 وحرّم ذلك على المؤمنين ^١ . قال المفسرون : قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم
 فقراء ليست لهم أموال ، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن ، ومن
 يومئذ أخصب أهل المدينة ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين ، فقالوا :
 لو إنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنيننا الله تعالى عنهن . فاستأذنوا النبي
 صلي الله عليه وسلم ، في ذلك ، فنزلت هذه الآية وحرّم فيها نكاح الزانية صيانة
 للمؤمنين عن ذلك . وقال عكرمة : نزلت الآية في نساء بغايا متعالمات بمكة
 والمدينة ، وكن كثيرات ، ومنهن تسع صواحب رايات ، لهن رايات كرايات
 البيطار يعرفونها : أم مهدون (أم مهزول) جارية السائب بن أبي السائب
 المخزومي ، و (أم غليظ) (أم غليظ) جارية صفوان بن أمية ، و (حبة
 القبطية) (حنة القبطية) جارية العاص بن وائل ، و (مرية) جارية مالك بن
 عميلة (عمثلة) بن السباق بن عبد الدار ، و (حلالة) (جلالة) جارية
 سهيل بن عمرو ، و (أم سويد) جارية عمرو بن عثمان المخزومي ، و (شريفة)
 (سريفة) جارية زمعة بن الأسود ، و (قرينة) (فرسة) جارية هشام بن
 ربيعة بن حبيب بن حليفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤي ، و (فرنا)
 (قريبا) جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر . وكانت
 بيوتن تسمى في الجاهلية (المواخير) لا يدخل عليهن ولا يأتين إلا زان من
 أهل القبلة أو مشرك من أهل الأوثان ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن ليتخذنوهن
 مأكلة ، فأنزل الله تعالى ، هذه الآية ، ونهى المؤمنين عن ذلك ، وحرّمه
 عليهم ^٢ .

ورود أن امرأة يقال لها أم مهدون (أم مهزول) كانت تسافح وكانت
 تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة . وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها ،
 فذكر ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية : « الزانية لا ينكحها
 إلا زان » ^٣ . وكان لمرثد صديقة في الجاهلية ، يقال لها عناق ، وكان مرثد

١ سورة النور ، الآية ٣ .

٢ أسباب النزول (٢٣٦ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٨ / ٥٥ وما بعدها) .

٣ أسباب النزول (٢٣٦) .

رجلاً شديداً ، وكان يقال له : دلدل ، وكان يأتي مكة فيحمل ضعفة المسلمين الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلقني صديقتي ، فدعته الى نفسها ، فقال : إن الله قد حرم الزنا ، فقالت : اني تبرز . فخشي أن تشيع عليه ، فرجع الى المدينة فأتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله كانت لي صديقة في الجاهلية ، فهل ترى لي نكاحها ؟ قال : فأنزل الله : « الزانية لا ينكحها إلا زان ... »^١ . وذكر أنهم كنّ بغايا متعاملات كنّ في الجاهلية ، يعني آل فلان وبني آل فلان ، فأنزل الله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » فحكم الله بذلك من أمر الجاهلية على الإسلام^٢ . وورد : كان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية التي قد علم ذلك منها ، يتخذها مأكلة ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة ، فنهوا عن ذلك^٣ .

وفي القرآن الكريم : « ولا تُكْرَهُوا قَتِيلَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ ، إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنًا ، لَتَبْتَغُوا عَرَصَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَمَنْ يَكْرَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ »^٤ . قال المفسرون : نزلت في معاذة ومسيكة جاريّتي عبد الله بن أبي المنافق ، كان يكرهها على الزنا لضريبة يأخذها منها . وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون إماءهم . فلما جاء الإسلام ، قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين ، فإن يك خيراً فقد استكثرتنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في ست جوارٍ لعبد الله بن أبيّ كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن ، وهن : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة ، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لهما : إرجعا فازنيا . فقالتا : والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا . فأتيا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وشككتا اليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية^٥ . وذكر أن رجلاً من قريش

-
- ١ تفسير الطبري (٥٦/١٨) .
 - ٢ تفسير الطبري (٥٧/١٨) ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (٧/٤) .
 - ٣ تفسير الطبري (٥٨/١٨) .
 - سورة النور ، الآية ٢٣ .
 - ٤ أسباب النزول (٢٤٥ وما بعدها) ، (مصر ١٣١ هـ) ، تفسير الطبري (١٠٣/١٨) وما بعدها .

أو بين البنت الحرة والرجل العزب أو الذي لم يتزوج ، أي الزنا مع غير الإماماء . أما الزنا مع الإماماء ، فلم يكن الجاهليون يعيرون الإنسان عليه كما بينت ذلك . ويظهر من بعض الأخبار الواردة عن الزنا أن من الجاهليين من كان يأخذ الفدية عنه . فقد روي أن رجلاً من الأعراب قام فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله واثذن لي . فقال رسول الله : قل : قال : إن ابني كان عسيفاً على هذا (وأشار الى أعرابي كان جالساً الى جانبه) فزني بامرأته فافتديت منه بمئة شاة وخادم ثم سألت رجلاً من أهل العلم ، فأخبروني أن علي ابني جلد مئة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم لإحصانها . فقال النبي : والذي نفسي بيده لأفضين بينكما بكتاب الله جلّ ذكره : المئة شاة والخادم ردّ عليك ، وعلى ابنتك جلد مئة وتغريب عام . وأغدُ يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . فعدا عليها فاعترفت فرجمها^١ . وقد كان هذا الحادث بعد نزول الأمر بالرجم . فيظهر منه أن من جملة عقوبات الزنا عند الجاهليين كان أخذ فدية ، أو أخذ فدية وتغريب .

واختلاف وجهة نظر الجاهليين الى الزنا ، هو بسبب اختلاف عاداتهم وعرفهم وتعدد قبائلهم ، وعدم وجود دين واحد لهم يخضعون جميعاً لحكمه . فلما جاء الاسلام وجعل الزنا من المحرمات ، تغير حكمهم عليه ، وصار شرعهم في ذلك هو شرع الإسلام .

و (المواخير) ، بيوت أهل الفسق ومجالس الخمّارين ، ومواضع الريبة . والمناخور : بيت الريبة ومن يسلي ذلك البيت ويقود اليه^٢ . واللفظة من الألفاظ المعربة . يرى بعض علماء اللغة أنها معربة عن أصل فارسي (مبخور) (مي خور) ، أي شارب الخمر، وذهب بعض آخر الى أنها من أصل عربي^٣ . ولكن الصحيح أنها فارسية معربة . وقد كانت المواخير في الجاهلية موجودة في القرى والمدن وعلى طرق التجارة . حيث يأوي التجار وأصحاب الأسفار للراحة ، فيجدون أمامهم تلك المواخير . ذكر عن (ابن عباس) في تفسير قوله تعالى : « الزاني

١ ارشاد الساري (١٧/١٠) .

٢ اللسان (١٦١/٥) ، تاج العروس (٥٣٤/٣) ، (مخر) .

٣ اللسان (١٦١/٥) ، تاج العروس (٥٣٤/٣) ، غرائب اللغة (٢٤٥) .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين «^١ أنه قال : « كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهن » ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهن ولا يأتين إلا زان «^٢ .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن ويحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقد حدثت مثل هذه الحوادث في الإسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم^٣ .

صواحب الرايات :

وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن^٤ . وذكر أن تلك الرايات كانت رايات حمراء^٥ . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الإسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط^٦) . وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الإسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث عليّ كرم الله وجهه ، لما طلب إليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولهم تَعَدُّمٌ وِبَرَبْرَةٌ)^٧ ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم . وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعتوبة نفسها^٨ . وإذا ضاجع رجل

-
- ١ النور ، الآية ٤ .
 - ٢ تفسير الطبري (٥٧/١٨) .
 - ٣ النساء ، الآية ١٥ ، تفسير الطبري (١٩٧/٤) .
 - ٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ ، وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .
 - ٥ تفسير المنار (٢٢/٥) .
 - ٦ المحبر (٣٤٠) .
 - ٧ تاج العروس (٣٨/٣) ، (بر) ، اللسان (٥٦/٤) ، (بر) .
 - ٨ اللاويون ، الاصحاح ٢٠ الآية ١٠ ، تنفية ، الاصحاح ١١ ، الآية ٢٢ .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين «^١ أنه قال : « كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤجرون فيها فتياتهن ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زان »^٢ .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة ، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلهن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن وينسبن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقد حدثت مثل هذه الحوادث في الاسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم^٣ .

صواحب الرايات :

وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن^٤ . وذكر أن تلك الرايات كانت رايات حمراء^٥ . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الاسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط)^٦ . وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الاسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث عليّ كرم الله وجهه ، لما طلب اليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تخليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولطم تَغْدَمُرٌ وبربرة)^٧ ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم .

وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعموية نفسها^٨ . وإذا ضاجع رجل

١ النور ، الآية ٤ .

٢ تفسير الطبري (٥٧/١٨) .

٣ النساء ، الآية ١٥ ، تفسير الطبري (١٩٧/٤) .

٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .

٥ تفسير المنار (٢٢/٥) .

٦ المعجم (٣٤٠) .

٧ تاج العروس (٣٨/٣) ، (بر) ، اللسان (٥٦/٤) ، (برد) .

٨ المزابيون ، الاصحاح ٢٠ الآية ١٠ ، تننية ، الاصحاح ١١ ، الآية ٢٢ .

ابنة مخطوبة ولم تصرخ الابنة رجم الاثنان ، وإذا صرخت رجم هو فقط^١ . وإذا ضاجع رجل ابنة حرة غير مخطوبة ، فوُجدا ، لزم عليه اعطاء والدها خمسين شاقلاً من الفضة ، ويلتزم أن يأخذها له امرأة^٢ . وإذا كانت الابنة غير حرة ، كان يقدم الرجل مقدمة حظيته^٣ . وقد نُصَّ في سفر (العدد) على طريقة إظهار زنا المرأة المتهمه ومعاقبها^٤ .

ويظهر من كتب السير والحديث أن يهود المدينة في أيام الرسول ، كانوا قد تساهلوا في تطبيق أحكام التوراة بشأن الزنا، وابتدعوا طرقاً أخرى غير طرق العرف والعادة . فقد روي انه أتى رسول الله بيهودي ويهودية ، وقد أحدثا جميعاً ، أي زنيا . فقال رسول الله لليهود : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : إن أجبارنا أحدثوا تميم الوجه والتجبية . أي الإركاب معكوساً ، وقيل أن يحمل الزانيان على حمار مخالفاً بين وجهيهما . قال عبدالله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأتى بها ، وقرأ موضع الرجم ، فرجما^٥ .

وعرفت (القيادة) عند الجاهليين . قالت « عائشة رضي الله عنها : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأس^٦ إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها ، ولكن الواصلة أن تكون بغياً في شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة^٦ . والقوادة هي التي تجلب البغايا للرجال ، وأما القواد ، فالذي يقوم بالقيادة . و (التسديث) القيادة . و (الديوث) القواد على أهله والذي لا يغار على أهله . وقيل الديوث والديبوب الذي يدخل الرجال على حرمة بحيث يراهم ، كأنه لين نفسه على ذلك . وقيل هو الذي توتى أهله وهو يعلم^٧ .

-
- ١ التثنية ، ٢٢ الآية ٢٣ وما بعدها .
 - ٢ التثنية ، ٢٢ ، الآية ٢٨ وما بعدها .
 - ٣ اللاويون ، ١٩ ، الآية ٢٠ وما بعدها .
 - ٤ العدد ، الاصحاح ٥ ، الآية ١١ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٥٢٠) .
 - ٥ ارشاد الساري (١٠ / ١١ وما بعدها ، ٣٠) زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية (٣ / ٢٠٧ وما بعدها) .
 - ٦ عيون الاخبار ، للدينوري (٤ / ١٠٢) ، (باب القيادة) ، اللسان (١١ / ٧٢٧) ، (وصل) .
 - ٧ اللسان (٢ / ١٥٠) ، (ديث) ، تاج العروس (١ / ٦٢٢) ، (ديث) ، (٢ / ٤٧٨) (قود) .

وضرب المثل بـ (ظلمة) في القيادة . وكانت (صبيّة في الكتاب ، فكانت تضرب دويّ الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما أسنّت قادت ، فلما قعدت اشترت تيساً تنزيه على العتر)^١ . وذكر أنها كانت فاجرة هذلية . فضرب بها المثل لقبيل (أقود من ظلمة) و (أفجر من ظلمة)^٢ .

المخادنة :

وهناك نوع آخر من العلاقات يكون بين الرجل والمرأة بغير عقد ولا نكاح يكون الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها ، وتكون هي خدنه له ، أي صديقة له^٣ ، ولذلك عبر عن هؤلاء النسوة المتخادئات بـ (ذوات الأخدان) و (متخذات أخدان) . جاء ذكر هذه المخادنة في الآية الكريمة : « فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »^٤ . أي أصدقاء على السفاح . وقد ذكر أن ذلك قيل كذلك ، لأن الزواني كُنّ في الجاهلية المعلنات بالزنا والمتخذات الأخدان اللواتي قد حبسن أنفسهن على الخليل والصديق للفجور بها سرّاً دون إعلان بذلك . وقد ذكر أن متخذات الأخدان ذوات الخليل الواحد . قالوا : كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفي فلا بأس بذلك . فأنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)^٥ . فذات الخدن ، المرأة ذات الخليل الواحد المستسرة به . وقد يقيم معها وتقيم معه وقد عد صداقة ومودة ، لذلك اختلفت وجهة نظر أهل الجاهلية اليه عن وجهة نظرهم الى الزنا ، فلم يعدّوه من الزنا الشائن .

المضامدة :

والمضامدة قريبة من المخادنة . والضمّم أن تخالّ المرأة ذات الزوج رجلاً

-
- ١ عيون الاخبار ، للدبنوري (١٠٣/٤) .
 - ٢ الميداني ، الامثال (٦٠/٢) ، (بولاق) ، تاج العروس (٣٨٦/٨) ، (ظلم) .
 - ٣ تاج العروس (١٩٠/٩) (خدن) .
 - ٤ النساء ، الآية ٢٥ .
 - ٥ تفسير الطبري (١٣/٥) وما بعدها .
 - ٦ المصدر نفسه .

غير زوجها أو رجلين . والضهاد أن تصادق المرأة اثنين أو ثلاثة في القحط لتأكل عند هذا وهذا لتشبع . و (الضمد) الخلل^١ .

الشذوذ الجنسي :

والشذوذ الجنسي معروف عند الجاهليين أيضاً كما هو عند جميع الأمم منذ القدم ، وليس من المعقول استثناء الجاهليين من ذلك ، بدليل ورود النهي عنه والتحذير منه في القرآن الكريم وفي الحديث . ومن الشذوذ الجنسي ، الشذوذ المعروف ، وهو ذهاب الرجل مع الرجل ومزاولته عمل الجنس معه ، أو اتصال المرأة بالمرأة اتصالاً جنسياً ، أو اتيان الرجل المرأة من دبر ، كما كان الحال عند أهل مكة فقد ذكر أن منهم من كان يأتي النساء من أدبارهن ، وقد منع ذلك في الاسلام^٢ . وقد عرف إتيان المرأة في دبرها بـ (التحميص) . ويقال للتفخيز في الجماع (التحميص) أيضاً^٣ . وذكروا في تفسير الآية : (نساؤكم حرث لكم)^٤ : (انما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن ، مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت : انما كنا نؤتى على حرف ! فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني ، حتى شرى أمرهما فبلغ ذلك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : فأتوا حرثكم أنى شئتم ، أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد^٥ . وذكر أن

- ١ اللسان (٢٦٦/٢) ، (ضمد) ، تاج العروس (٤٠٦/٢) ، (ضمد) .
- ٢ تفسير الطبري (٢٣٠/٢) وما بعدها ، القرطبي الجامع لاحكام القرآن (٩١/٣) ، في تفسير الآية ، (نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم) ، الآية ٢٢٣ من سورة البقرة .
- ٣ تاج العروس (٢٣/٥) ، (حمض) .
- ٤ سورة البقرة ، الآية ٢٢٣ .
- ٥ تفسير الطبري (٢٣٤/٢) ، القرطبي ، الجامع (٩٢/٣) وما بعدها ، تاج العروس (٦٦/١٠) .

أهل مكة كانوا يجوبون النساء ، وكانت الأنصار لا تجبي وتنكر فعل ذلك ، وإنما يؤتين على جنوبهن . فوقع خلاف بين أهل مكة ممن تزوج من أهل المدينة وبين من تزوجوا في كيفية إتيانهن ، فنزلت الآية في شرح ذلك ، وانه يكون على أي شكل كان ، ما دام في موضع الحرث . والإجباء : أن تكون المرأة منكبة على وجهها كهيئة السجود ، فيأتيها الرجل على هذه الهيئة . وذكر ان يهود يثرب ، كانت تقول : إذا نكح الرجل امرأته مجيبة جاء الولد أحول^١ .

وتستعمل لفظة (اللواط) للتعبير عن إتيان الذكران في أدبارهم^٢ وأرى أن هذا المعنى إنما وقع في الإسلام . أخذ مما جاء في القرآن الكريم عن عمل قوم لوط : (إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أنتم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر)^٣ ، (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون)^٤ . و (لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون)^٥ ، فنسب فعل إتيان الرجال بعضهم بعضاً إلى قوم (لوط) ، واشتق الفعل من اسمه . ونرى ان الآيات قد استعملت : (لتأتون الرجال) ، للتعبير عن هذا الفعل . واستعمل المفسرون هذا التعبير وتعبير (المجامعة) للتعبير عنه . وقد استعمل الجاهليون (لواط) في معان أخرى لا صلة لها بالمعنى المذكور . وفي ذلك دلالة واضحة على أن استعمال (اللواط) إنما وقع في الإسلام . والمأبون الذي تفعل به الفاحشة ، وهي الأبتة^٦ . ومن المجاز برقع لحيتته ، أي صار مأبوناً ، تزيًا بزي من لبس البرقع ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر قيساً قيساً عيلان برقعت لحاها وباعت نبلها بالمغازل^٧

-
- ١ تاج العروس (٦٦/١٠) ، (جبي) .
 - ٢ تفسير الطبري (١/٢٠) .
 - ٣ العنكبوت ، الآية ٢٨ وما بعدها .
 - ٤ النمل ، الآية ٥٤ .
 - ٥ الاعراف الآية ٨٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (١٦٤/٨) وما بعدها .
 - ٦ تاج العروس (١١٦/٩) ، (ابن) .
 - ٧ تاج العروس (٢٧٤/٥) ، (برقع) .

وذكر (ابن قيم الجوزية) أن هذا الفعل لم يكن معروفاً بين العرب ولم يرفع إلى الرسول في أيامه حادث به^١ .

وتعير (السحاق) و (المساحقة) و (امرأة سحاقة) من التعابير التي انتشرت في الإسلام وقال الأزهري : ومساحقة النساء لفظة مولدة^٢ . ومن علماء اللغة من يرجع عهدها إلى الجاهلية ، ويجعلها من الألفاظ العربية الأصيلة . واللفظة عربية ولا شك ، ولكن استعمالها في المعنى المذكور مجازي ، وقول الأزهري إنها مولدة غير صحيح .

وكان منهم من يضرب جاريته على ظهرها ثم يجامعها^٣ . كأنهم كانوا لا يشعرون بشهوة الجنس على ما يظهر إلا بعد ضرب الجارية ، ويعبرون عن ذلك بقولهم (صلق جاريته) ، ويعرف هذا بين الغربيين في العصر الحاضر بالسادية Sadism نسبة إلى (الكونت دي ساد) . كناية عن الابتهاج بالقسوة . وعن انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بإنزال أصناف العذاب بمحبوبه .

ومن الشذوذ أيضاً إتيان الحيوان . فقد ذكر أن (بني كليب) كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وكذلك بنو الأعرج وسلم . وأشجع تُرمى بإتيان المعز . ونجد ذلك واضحاً مذكوراً في شعر الشعراء كالنجاشي والفرزدق^٤ . ورميت (بنودارم) بإتيان الأتن^٥ . وتعرض (الجاحظ) في أثناء حديثه عن زواج الانس بالجن لهذا الموضوع فقال : ونحن نجد الأعرابي والشاب الشبق ، بينكان الناقة والبقرة والعنز والنعجة ، وأجناساً كثيرة ، فيفرغون نطفهم في أفواه أرحامها ، ولم نرَ ولا سمعنا على طول الدهر ، وكثرة هذا العمل الذي يكون من السفهاء ، القح منها

١ زاد المعاد (٢٠٩/٣) .

٢ تاج العروس (٣٧٨/٦) ، (سحق) .

٣ تاج العروس (٤١١/٦) ، (صلق) .

٤ الست كليبا وأمك نعجة لكم في سمان الضأن عار ومفخر

وقال النجاشي :

ولو شتمتني من قريش قبيلة سوى ناقة المعزى سليم وأشجع

فخر السودان على البيضان ، من رسائل الجاحظ (١٨٩/١) .

٥ إذا أحببت أن تغلي أتانا فدل الدارمي على شراها

يقبل ظهرها ويكاد لولا قحول الظهر يدنو من قفاها

وود الدارمي لو أن فاه إذا نال الحمامة نال فاهها

فخر السودان ، من رسائل الجاحظ (١٨٩/١) .

شيء من هذه الأجناس، والأجناس على حالهم من لحم ودم، ومن النطف خلقوا^١.
ورميت (بنو فزارة) بإيتان الإبل . رماها بذلك (بنو هلال بن عامر بن
صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن) في ملاحظة كانت بين الحيين . والعادة
أن القبائل إذا تخاصمت رمت بعضها بعضاً بالتهم ، وذلك في الجاهلية وفي الإسلام .
فلما رمى (بنو هلال) (بني فزارة) بأكل أير الحمار ، وإيتان الإبل ، قالت
بنو فزارة : أليس منكم يا بني هلال من قرا في حوضه فسقى إبله ، فلما رويت
سلح فيه ومدره بخلاً أن يشرب من فضله^٢ .

الأتراح والأحزان :

وإذ كنت قد تحدثت عن الأفراح في حياة الانسان ، وما كان يفعله أهل
الجاهلية فيها ، فلا بد لي من التحدث هنا عن الأتراح والأحزان عندهم ، وما
كانوا يفعلونه عند نزول مصيبة بهم أو وقوع حادث محزن مفرج لهم ، فأقول :
يلعب الحزن دوراً كبيراً في حياة الشرقيين ، بل نستطيع أن نقول إن الحزن
أظهر في حياتهم من الفرح، وأن المبالغة في إظهاره عندهم هي من المظاهر البارزة
في مجتمعاتهم . وطالما يلجأ الحزين إلى المبالغة في حزنه ، ليظهر نفسه وكأنه كان
أكثر الناس تحملاً للمصائب والأهوال والنكبات ، وما قصة (أيوب) الواردة
في التوراة إلا نوعاً من هذا القصص : قصص الحزن وتحمل الصبر من شدة البلاء.

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٣٧١/٢)
٢ قال الكميث بن ثعلبة :

إذا خيرت تخطيء في الخيار أحب اليك أم أبر الحمار ؟ أحب الي فزارة من فزار	نشدتك يا فزار وأنت شيخ أصيحانية أدمت بسمن بلي أبر الحمار وخصيته وفال سالم بن دارة :
على قلوصك واكتبها بأسيار بعد الذي أمتك أير العير في النار	لا تأمن فزارياً خلوت به لا تأمنه ولا تأمن بواقفه فقال الشاعر :

بني عامر طرا بسلحة مادر بني عامر أنتم شرار المعاشر	لقد جللت خزياً هلال بن عامر فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها ناج العروس (٥٣٦/٣) ، (مدر) ^٣
---	---

وفقدان المال بعد ثراء وغنى وبجاه والعلل والأسقام التي تنزل بالإنسان ، والكوارث والموت وأمثال ذلك ، هي مما يثير الحزن والأشجان في النفس، فتجعل الإنسان يحزن على ما أصابه ويظهر جزعه أو تحمّله للألام أمام الناس ، وذلك بمختلف أساليب التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزين .

والحزن : الهمّ . وقيل : خلاف السرور . وقد فرّق بعضهم بين الهمّ والحزن . وقال بعض علماء اللغة : الحزن : الغمّ الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي وبيضاده الفرح . وقد سمى رسول الله العام الذي مات فيه (خديجة) وعمّه (أبو طالب) (عام الحزن) ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، لما أصابه فيه من همّ وغمّ^١ .

وللعرب كما لغيرهم من الشعوب مصطلحات وتعابير خاصة ، يعبرون بها عن آلامهم وأحزانهم وما يجيش في صدورهم من أحزان . منها تعابير يستعملها المحزون نفسه تعبيراً عن حزنه وآلامه الشديدة ، ومنها تعابير يستعملها المحزون في الرد على من يتفضل عليه بمواساته للتخفيف عن آلامه، بأن يدعو لهم ويشكرهم على تكليف أنفسهم مشقة المجيء إليه لمواساته أو مشاركتهم له في حزنه . ومنها تعابير يقولها المؤاسون للشخص المحزون للتخفيف عن مصابه وللترويح عنه وإظهار حزنهم له ومشاركتهم له في أحزانه .

كما أن لهم كما لغيرهم علامات وشعارات يظهرونها للناس لإشعارهم بأنهم مصابون بآلام وأحزان ، ومجولون نكبات وكوارث بهم . وذلك مثل لبس ألبسة خاصة تكون شعاراً خاصاً بالحزن ، وذرت الرماد أو التراب على الرأس أو تلطّيح الرأس والوجه بالطين ، وترك الشعر ينمو دون حلق ولا إجراء تعديل فيه أو ترك دهنه مدة معينة لإظهاراً للحزن على ميت ، وما إلى ذلك من علامات ، هي ضرورية ولازمة جداً ، بالنسبة للمحزون أو للمحزونين والمفجوعين ولأصدقائهم ، إذ أن إهمالها وتركها هو في نظرهم عيب ومنقصة على المفجوع وعلى أصدقائه وعلى آلِه على حدّ سواء . ثم هي تقاليد لا بد من مراعاتها والمحافظة عليها .

ومن ذلك أيضاً : النداء . وذلك بإعلان شخص عن المصيبة بصوت عال يسمع حتى يشاركه الناس مصيبته أو ليحصل منهم على ما يرجوه من مساعدة .

١ تاج العروس (٧٤/٩) ، (حزن) .

مثل واسوء صباحاه : في المصيبة التي تقع في آخر الليل وأول النهار . أو أن يعلن عن وفاة كبير وذلك بأن يتنادي بصوت عال في الأحياء وفي الأماكن العامة عن موت ذلك الكبير بعبارات مؤثرة وبصوت رخيم . ليكون ذلك معلوماً لأهل المكان ، فيتجمعون حول المفجوع ويشاطرونه حزنه ويشتركون في تشييع الجنازة . ويعبر عن الكوارث والآفات والمصائب بلفظة (لمت) ، في بعض اللهجات العربية الجنوبية ، كما في هذه الجملة : (كل لمت لمت) ، ومعناها من كل ملامة ألت ، أو من كل نازلة نزلت^١ . وفي هذا المعنى أيضاً جملة : (بعد حدثت حدثت)^٢ أي بعد حادثة حدثت ، أو بعد الحادثة التي حدثت ، أو بعد الفاجعة التي حدثت .

ويقال لما يصيب الناس من عظيم نوب الدهر : (دواهي الدهر) . وإذا نزلت بشخص مصيبة قالوا : (دهته داهية) ، وقد يقولون (داهية دهاية) على سبيل التوكيد والمبالغة . ويقول الشخص : دهيت . وتقول ما دهاك ؟ أي ما أصابك . وكل ما أصابك من منكر من وجه المأمن فقد دهاك دهاياً . والدهياء : الداهية من شدائد الأمر .

أخو محافظة ، إذا نزلت به دهاية داهية من الأزم^٣

والاصطلاح الشائع عن هلاك الإنسان وفقده الحياة هو (الموت)^٤ . وقد وردت هذه اللفظة في لهجات عربية أخرى ، مثل اللهجة الصقوية والحيانية^٥ وهناك ألفاظ أخرى تؤدي معنى الموت والهلاك . مثل الهلاك والمنايا والأحداث والحيايم والأجل والحتف والقدر والمنون والزمان والسأم والنجب وغير ذلك^٦ . وهي مصطلحات جاهلية ، بعضها من المصطلحات القديمة ، لها معانٍ أوسع من مصطلحات الموت . ولكن ربط بينها وبين هذا المصطلح لما لها من صلة بهلاك الإنسان وبمصيره ، فجعلت تؤدي معنى الموت .

-
- ١ راجع السطر السادس من النص : Glaser 131, CIH 99.
 - ٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 160.
 - ٣ اللسان (٢٧٥/١٤) ، (دها) .
 - ٤ المنخصص (١١٩/٦) (أسماء الموت) .
 - ٥ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, S. 149.
 - ٦ اللسان (١٦١/٢٠) . تاج العروس (٣٤٧/١٠) .

وهلك بمعنى مات ، معروف عند أهل اللغة^١ . وقد وردت اللفظة بهذا المعنى في نص الهارة الذي يعود تأريخه الى سنة ٣٢٨ م. وأما الميتة ، فالموت كذلك في نظر علماء اللغة ، لأن الميت القدر والموت قدر علينا^٢ . وأما الحتف ، فهو الموت أيضاً ، وجمعه حتوف . وهو معنى مجازي جاهلي متأخر . ورد في المثل : (مات حتف أنفه) . أي على فراشه من غير ضرب ولا قتل ولا غرق ولا حرق ، وخص الأنف لأنهم كانوا يتخيلون أن روح الرجل تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . وهناك مثل آخر يشبهه وهو (مات حتم فيه) لأن النسم مجرى النفس كذلك^٣ .

وترادف لفظه (الميت) و (ميت) لفظه (جنز) في العريبات الجنوبية^٤ . وذكر علماء العربية ان الجنازة الميت^٥ ، فهي في معنى لفظه (جنز) الواردة في المسند .

وقريب من معنى (مات حتف نفسه) ، ما ورد في بعض النصوص الصنفوية من تعبير (رغم مني)^٦ ، فإنه يريد ان الشخص لم يميت قتلاً ، وإنما مات رغماً منه ، مات بمنيته وبأجله .

ويعبر مصطلح (مات بحمد السيف) أو (مات صبراً) ، عن معنى ان الوفاة لم تكن طبيعية ، وإنما كانت قتلاً ، إما بضرب عنقه ، وإما بوسائل أخرى من وسائل التعذيب ، صبر عليها ذلك الشخص ، حتى مات .

وورد : (الموت الأبيض) و (الموت الأحمر) . الأبيض الفجأة ، أي ما يأتي فجأة ، ولم يكن قبله مرض يغير لونه . والأحمر الموت بالقتل لأجل الدم . والانتحار ، أي قتل الانسان نفسه ، معروف عند الشعوب القديمة ، ويكون إما يزهق الانسان روحه باستعمال آلة حادة ، مثل سكين أو خنجر وما شابه ذلك ، وإما برمي الشخص نفسه من محل مرتفع ، أو بإغراق نفسه ، أو بإحراق

-
- ١ اللسان (٣٩٤/١٢) ، تاج العروس (١٩٤/٧) .
 - ٢ اللسان (١٦١/٢٠) ، تاج العروس (٣٤٧/١٠) .
 - ٣ اللسان (٢٨٢/١٠) ، تاج العروس (٦٤/٦) ، القاموس (حتف) .
 - ٤ South Arabian Inscriptions, P. 430.
 - ٥ تاج العروس (١٨/٤) ، (جنز) .
 - ٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, II, 1953, p. 20.
 - ٧ تاج العروس (١٠/٥) ، (بيض) .

نفسه بنار ، وما إلى ذلك . ويعد من الأعمال الشريرة في الأديان . ويعبر في العربية بـ (قتل نفسه) عن (الانتحار) .

ومن الألفاظ التي تعني الموت : القشم . يقال : قشم الرجل قشماً ، أي مات^١ . وأم قشعم ، فإنها تعني المنية ، كما تعني الحرب والداهية^٢ . والحيام ، لأنه قضاء الموت وقدره^٣ . و (أم اللهم) : ويراد بها (الحمى) ، ويكنى بها عن الموت ، لأنها تلتهم كل أحد . وقيل : هي (المنية) ، وكنية الموت ، لأنها تلتهم كل أحد^٤ .

ويعبر عن الحالات التي يكون فيها المرض قد اشتد بالمرض حتى صار يشرف على الموت بتعابير خاصة مثل : (سكرات الموت) و (الحشرجة) ، ويراد بها تردد النفس^٥ .

ويعبر عن القتل المعجل بالقصاص ، فيقال مات فلان قصصاً ، إذ أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه . ويقال ضربه فأقصصه ، أي قتله في مكانه^٦ .

والدهر والحدثان والزمان والقدر ، صلوات قوية بالموت ، إذ تنسب إليها إماتة الانسان . والدهر على الأخص مسؤول في نظر أهل الجاهلية عن قوارع الزمان وحوادثه التي تنزل بالانسان . انه هو المييد ، وهو المهلك ، وهو المقدر ، فهو اذن بالنسبة إلى الجاهلين رأس كل بلاء . ولكنهم بدلاً من التقرب اليه والتودد له ليتعد عنهم ، وليرأف مجاهم كانوا لا يستطيعون ضبط أعصابهم عند نزول الشدائد بهم ، فيسبونه ، لذلك ورد ان الرسول نهى عن سب الدهر فقال : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » . وجعل الدهر في الاسلام من أسماء الله الحسنى ، وذكر انه ورد في الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وإنما أنا الدهر »^٧ .

والموت في نظر الجاهلين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول

-
- ١ اللسان (٤٨٤/١٢) ، (صادر) .
 - ٢ اللسان (٤٨٥/١٢) ، (صادر) ، قاموس المحيط (١٦٥/٤) ، (١٩٣٥ م) .
 - ٣ تاج العروس (٢٥٨/٨) .
 - ٤ اللسان (٥٥٤/١٢) .
 - ٥ تاج العروس (٢٢/٢) .
 - ٦ اللسان (٧٨/٧) ، (صادر) ، تاج العروس (٤٢٤/٤) .
 - ٧ تاج العروس (٢١٨/٣) ، اللسان (٤٣٧/٢) ، (٣٨٢/٦) .

إلى هلاكه . تخرج الروح من الأنف أو من الفم وذلك في الموت الطبيعي وفي موت الفجأة . أما إذا كان الموت بسبب جرح ، فإن الروح تخرج على ما ذكره الأخباريون من الجرح^١ . والروح قد تتحول وتصير طائراً يرفرف فوق قبر الميت يسمى (الهامة) في حالة كون الميت قتيلاً .

واعتقد بعض الجاهليين ان الموت أجل مثبت وأمر معين محتم ، وهو لا يأتي إلا في حينه . فإذا جاء الأجل كان حذر الانسان وجبته غير دافع عنه المنية إذا حلت به . وذكر ان أول من قال ذلك (عمرو بن مامة) في شعره . وفي حديث عامر بن فهيرة :

والمرء يأتي حتفه من فوقه

ولحنس بن مالك بيت في الختوف ، إذ يقول :

ففسك احرز فإن الختو ف يبنان بالمرء في كل واد^٢

وكامة (الروح) من الكلمات المعروفة عند الجاهليين . وقد صورتها بعض الأخبار الإسلامية حفظة على الملائكة ، وجعلت لها وجهاً كوجه الإنسان وجسداً كجسد الملائكة، ولا يمكن رؤيتها كما لا يمكن رؤية الملائكة^٣ . بها يعيش الإنسان وبها حياة الأنفس . وقد سأل الجاهليون الرسول على ماهية الروح، فنزلت الآية : « يسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً »^٤ . ويذكر المفسرون أن سائله هم اليهود^٥ او ان اليهود علموا المشركين أن يسألوه عن الروح محاولين بذلك إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد .

ويظهر من تمحيص الأخبار الواردة عن الموت والقبور وأشباه ذلك أن عقيدة الجاهليين ان الروح متصلة بالجسد ملازمة له في أثناء الحياة ، فإذا وقع الموت انفصلت عن الجسد وفارقتة . ثم اختلفوا فيما بينهم في مصير الروح ، فمنهم من

-
- ١ اللسان (٢٨٢/١٠) ، تاج العروس (٦٤/٦) .
 - ٢ اللسان (٣٨/٩) ، (حتف) ، تاج العروس (٦٤/٦) ، (حتف) .
 - ٣ تاج العروس (١٤٧/٢) ، اللسان (٢٨١/٣) وما بعدها .
 - ٤ الاسراء ، الآية ٨٥ .
 - ٥ الجلالين (٢٢٠/١) ، الروض الانف (١٩٦/١) وما بعدها .

تصورها وهي ملازمة (قبر صاحبها لا تفارقه ، وكأنها لا تريد أن تفارق الجسد الذي كانت مستقرة فيه) . فصارت المقابر موضع تجمع الأرواح ، ومنهم من ذهب الى هلاكها بهلاك الجسد أو تحولها أرواحاً تسبح في عالم الأرواح . ونجد في حديث (بجاهد) أن (الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك)^١ . تفسيراً لرأي بعض الجاهليين في مدة بقاء الروح حول القبر . وهناك أحاديث أخرى يظهر منها ان الروح تلازم القبور فلا تفارقهم .

وهناك كلمة أخرى لها صلة وعلاقة متينة بهذه الكلمة . هي لفظة (النفس) . وهي من الكلمات الجاهلية القديمة التي وردت في النصوص ، معناها الروح والشخص والذات والجسد . وقد ذكر لها علماء اللغة جملة معان استعملت في الأكثر على سبيل المجاز . ولم يفرق بعض هؤلاء بين الروح والنفس^٢ . ويظهر من بعض التعابير والجمل التي كان يستعملها الجاهليون مثل (خرجت نفس فلان) و(فاضت نفسه) (فاضت نفسه) أن المراد بالنفس الروح^٣ . وقد تصور بعضهم أن النفس الدم ، وإنما سمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه . وفي الحديث : « ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه » ولبعضهم آراء في التفريق بين الاثنين نشأت في العهد الإسلامي . ولا سيما من ورود استعمال الكلمتين في معان متعددة في القرآن الكريم وفي الحديث .

ويُعدّ (المرض) من جملة الآثام التي تنزلها الآلهة بالإنسان ، لخروجه على أوامرها ولعدم أداء ما عليه من واجبات وفروض تجاهها ، ومنها الحقوق التي فرضتها عليه ، وفي رأسها النذور والصدقات والزكاة التي امرت الآلهة بتقديمها

-
- ١ كتاب الروح : لابن قيم الجوزية (ص ١١٥) .
 - ٢ المخصص (٦٢/٢) ، الروض الأنف (١٩٦/١) وما بعدها .
 - ٣ (وكذلك فاضت نفسه ، أي خرجت روحه . نقله الجوهري . عن أبي عبيدة والعراء ، قال : وهي لغة في نميم . وأبو زيد مثله . قال : وقال الاصمعي : لا يقال فاض الرجل ولا فاضت نفسه ، وإنما يفيض الدمع والماء . زاد في العباب : ولكن يقال فاض . بالظاء إذا مات ، ولا يقال بالضاد البنية) . ناج العروس (٧١/٥) . (فاض) ، قال الجوهري : وكذلك فاضت نفسه . أي خرجت روحه . عن أبي عبيدة والكسائي وعن أبي زيد مثله . وقال الاصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لا يقال فاضت نفسه . ولكن يقال فاض إذا مات) . ناج العروس (٢٥٨/٥) . (فيظن) .
- : الإنسان (٢٣٣/٦) وما بعدها .

الى معابدها . ولهذا نجد المريض يتوسل بألته لكي تصفح عنه وتعفو عن تقصيره تجاهها ، وأن تعيد اليه ما اخذته منه من صحة وعافية في مقابل تقديم نذر لها ووفائه بقيامه بكل ما أمرت به من واجبات تجاهها . وفي المتاحف الخاصة والعامّة مئات من الكتابات الجاهلية في هذا المعنى ، ومئات أخرى ، كتبت شكراً وحمداً للآلهة ، إذ سمعت توسلات عبيدها بأن تمن عليهم بالصحة والعافية ، فنت عليهم ولهذا فإنهم كتبوا كتاباتهم تلك للتعبير عن شكرهم لها ، ولمناسبة تقديمهم النذر الذي نذروه لمعابد الآلهة .

نعي الميت :

ويكون الاعلان عن موت شخص بالبكاء والنحي ، ويتوقف نعي الميت والبكاء عليه على قدر منزلة الميت ودرجة أهله ومكانتهم الاجتماعية . ويعسد نعي الميت وشق الجيوب عليه من وسائل التقدير والإكرام وتبجيل الميت ، ولذلك كانوا يوصون قبل موتهم بنعيهم للناس نعيًا يليق بهم ، ويقوم بذلك ناع أو جملة نعاة . يركب الناعي فرساً ويسير يعني الميت بذكر اسمه وتمجيده ليمسح بذلك القوم ، قائلاً : (نعاء فلان ...) وترد كلمة (الناعي) و (النعاة) كثيراً في الشعر وفي النثر^١ . وقد كان الجاهليون يستغلون نعي القتلى للتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ويقال لذلك : (الناعي)^٢ .

وقد نهي في الاسلام عن (نعي الجاهلية) ، وذلك لما كانوا يببالغون من النداء بموت الشخص وذكر مآثره ومفاخره ورتائه وثناء يتجاوز الحد^٣ .

والولولة والنياحة على الميت من التقاليد التي تشدد فيها أهل الجاهلية ، وكانت عندهم سمة من سمات التقديس . ولهذا كان أهل الجاه والغنى والأشراف يستأجرون النائحات للنياحة على الميت في بيته وخلف نعشه إلى القبر وفي مآتمه ، ويبالغون في ذلك تبعاً لمنزلة المتوفي . وتلك عادة متبعة عند غيرهم أيضاً، فقد كان العبرانيون

١ أقول لما أتاني الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل

بلوغ الارب (١٣/٣) ، تاج العروس (٢٧٣/١٠) ، (نعي) .

٢ تاج العروس (٣٧٣/١٠) ، (نعي) .

٣ القسطلاني ، ارشاد (٢٧٨/٢) ، (باب الرجل ينعي الى أهل الميت نفسه) .

يستأجرون النادبات ليندبن الموتى^١ . كما كان الرومان يتبعون هذه السنة .
 وكلمة (الرثاء) من الكلمات الجاهلية وهي تعني بكاء الميت وتعدد محاسنه
 ونظم الشعر فيه ، ويقال للمرأة التواحة ، والتي ترثي بعلها أو غيره من الأقارب
 والأعزاء ممن يكرم عندها (الرثاءة) و (الرثاية)^٢ . وأما (المناحة) ، فهي
 إجتماع النساء في مناحسة لظهار حزنهن على الميت . ويقال للإجتماع (نياحة)
 أيضاً . والكلمة من الكلمات الجاهلية كذلك^٣ . ويفهم كثير من الناس من كلمة
 (مآتم) المصيبة واطهار الحزن والنوح والبكاء، وليس هو كذلك ، وإنما (المآتم)
 في عرف أهل اللغة المجتمع مجتمع فيه النساء في حزن أو فرح في خير أو شر^٤ ،
 ويطلق على إجتماعات الرجال والنساء^٥ .

وفي الشعر الجاهلي أبيات بحث فيها الشعراء أهلهم ويوصونهم بالبكاء والنوح
 عليهم إذا مساتوا . فقد ذكروا أن طرفة بن العبد خاطب ابنة أخيه معبد بهذا
 البيت :

فإن متُ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد^٦

وذكروا أن الشاعر حازم بن أبي طرفة الحارث بن قيس الشداخ الكناني ،
 وهو شاعر جاهلي أوصى ابنته لما شعر بدنو أجله بأن تبكي والدها وأن تندبه
 وتذكر محامده وفعاله ، وذلك في هذين البيتين :

بينة إنّ الموت لا بد لاحق بشيخك ماضي الأنسام المودع
 فإن قت تبكيئي فقولي أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوع^٦

أما الشاعر لبيد ، فقد أوصى ابنته بهذه الوصية لما حضرته الوفاة :
 تمنى ابنتايّ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟

-
- ١ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٠/٢) .
 - ٢ تاج العروس (١٤٤/١٠) .
 - ٣ تاج العروس (٢٤٣/٢) ، (نوح) .
 - ٤ تاج العروس (١٧٩/٨) .
 - ٥ بلوغ الارب (١٠١/٣) .
 - ٦ الامدي المؤتلف (ص ١٠٠) .

فقوما وقولا بالذي تعلمانه ولا تحمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا : هو المرء الذي لا صديقَه أضاعَ ولا خانَ الأمين ولا غدر^١

وهي وصية فيها تعقل واقتصاد بالنسبة الى طلبات غيره ممن كان يرى البكاء والنياحة وخمش الوجوه وحلق الشعور وإظهار أكثر ما يمكن من مظاهر الحزن والتوجع والتألم وأمثال ذلك ، هي سياء من سياء التقدير والتعظيم والاحترام للميت بل للاحياء من آله وأقربائه أيضاً ، لأنها دلالة على شدة تألمهم لذهاب فقيدهم ، وعلى أنهم لا يباليون في الإنفاق في شيء حتى في إيلام أنفسهم وتوجيع أجسامهم وهلاكهم في سبيله ، وانهم كرماء لا يباليون في البذل في سبيل من يفتقدونه .

وما كان ليبد ، ليقنع بهذا المأتم لو كان على رأي أهل الجاهلية . فآتمه هذا مأتم بارد لا يليق بمقام رجل جاهلي ، ولكنه كان مسلماً ، دفعه إسلامه على القناعة في مأتمه وعلى الاكتفاء بهذا القليل . فقد ورد في الحديث : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله » ، وأن الرسول قال : « ليس منّا من لطم الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » ، وانه « بريء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، وانه قال : « اثنتان في الناس هما بهما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » إلى غير ذلك من أحاديث تنهى عن هذه المظاهر ، التي هي في نظر الاسلام من سياء أهل الجاهلية^٢ .

ويصحب البكاء شق الجيب وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة اياماً لنذب الميت وذكر مناقبه . تقوم بذلك ناديات ممتحنات أو غيرهن ممن رزقن موهبة القول في مثل هذه الأحوال من أفراد الأسرة أو القبيلة أو الحي أو القرية . وفي بيت لـ (طرفة بن العبد) نجده يوصي بنعيه بما يستحقه وبشق الجيب عليه^٣ . وقد يمتد نعي الميت ورتاؤه حولاً كاملاً ، وهي مدة عزاء أهل الجاهلية^٤ . فإذا انتهى

١ بلوغ الارب (١١/٣) .

٢ بلوغ الارب (١٢/٣) وما بعدها ، (من الجاهلية النياحة على الميت) البخاري : التاريخ الكبير (٢٣٢/١) ، (ثلاث من فعل الجاهلية لا يدعهن أهل الاسلام : استسقاء بالكواكب وطعن في النسب ، والنياحة على الميت) ، الاصابة (٢٤٧/١) القسطلاني ارشاد الساري (٤٠٤/٢) ، (باب ما يكره من النياحة على الميت) .

٣ فان مت فأتعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

بلوغ الارب (١١/٣) .

٤ تاج العروس (٣٢٠/٦) ، بلوغ الارب (١٢/٣) .

الحول وقد بكوه البكاء الذي استحقه الميت عن أقرباؤه عن الإستمرار في بكائه إلاّ في المناسبات . قال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاّ كاملاّ فقد اعتنرا^١

وتعرف التي ترفع صوتها بالنياحة بـ (الصالقة) . وأما التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فيقال لها (الحالقة) . وأما التي تشق جيبها ، فيقال لها (الشاققة) . ويقال لتعدد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت النادبة ولعملها الندب^٢ . والظاهر أن الندب كان خاصاً بالنساء ، وإن وردت كلمة (نادب) عند اللغويين^٣ .

وقد نهى الإسلام عن (الصلوق) ، ورد في الحديث : « ليس منا من صلوق أو حلق أو خرق » . أي ليس منا من رفع صوته عند المصيبة وعند الموت . ويدخل فيه النوح أيضاً^٤ . و (السالقة) ، هي بمعنى (الصالقة) ، وهي لهجة ولا شك من لهجات القبائل ، وقد وردت في رواية أخرى للحديث المذكور أيضاً^٥ .. ولطم الخدود وخشها وشق الجيوب وذر التراب أو الرماد أو وضع الطين على الرأس والخدود عادة لا يتفرد بها العرب وحدهم ، بل هي موجودة عند غيرهم من الأمم أيضاً . وفي التوراة آيات تشير إليها كلها وتعدّها من دلائل الحزن والأسى الشديد والتوجع على الميت . وهي كلها مذكورة فيها من البكاء والنحيب على الميت الى ذرّ الرماد والتراب أو وضع الطين على الرأس الى شق الجيوب ولطم الصدر والخدود .

وليست عادة استئجار النادبات بعادة خاصة بالعرب الجاهليين، فقد كان العبرانيون يستأجرون النادبات كذلك ليندبن الميت ، وقد أشير الى ذلك في التوراة^٦ ، ولعلها من العادات السامية القديمة المعروفة عند بقية الساميين .

-
- ١ بلوغ الارب (١٢/٣) .
 - ٢ بلوغ الارب (١٣/٣) .
 - ٣ تاج العروس (٤٨١/١) . « ندب » .
 - ٤ « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برىء من الصالقة والخالقة والشاققة » ، صحيح مسلم (٧٠/١ وما بعدها) ، « باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية » تاج العروس (٤١١/٦) .
 - ٥ تاج العروس (٣٢٠/٦ وما بعدها ، ٣٨٢) .
 - ٦ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٠/٢) .

ويقال لمدّ الصوت بالنحيب (النقع) ، وأما مدّ اللسان بالولولة ونحوها ، فيقال له (اللققة)^١ .

ويحترم الجاهليون الموت والميت فكانوا يقومون إذا مرت بهم جنازة ، ويقولون إذا رأوها : (كنت في أهلك مائتاً مرتين) . أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه فكانوا يسرون أمام الجنازة وخلفها الى المقبرة^٢ .

وتعفر النساء رؤوسهن بالتراب وبالرماد وبالطين ويلطمن خدودهن بأيديهن ، كما كنّ يلطخن رؤوسهن بالطين ويسرن مع الجنازة لإظهاراً للحزن والجزع على الفقيد . وترافقهن النادبات والمولولات ، يندبن الميت ويولولن عليه ، يسرن حافيات مبالغة في إظهار الحزن .

وكانت العرب لا تندب قتلاها ولا تبكي عليها حتى يثأر بها ، فإذا قتل قاتل القاتل ، بكت عليه وناحت^٣ .

ويتبين من حديث (عمرو بن العاص) ان من عادات الجاهليين حمل النارع الجنازة تصطحبها اصطحاب النائحة لها . وقد أباح (عمرو) لأهله نحر جزور عند قبره لتوزيع لحمها على المحتاجين ، وأن يقيموا حول قبره حتى يستأنس بهم ، وينظر ماذا يراجع به رسل ربه^٤ . ونجد مثل ذلك في خبر يذكر ان (أبا موسى الأشعري) لما حضره الموت دعا ابنه ، فقال : « أنظروا اذا أنا مت فلا تؤذنن بي أحداً ولا يتبعني صوتٌ ولا نارٌ »^٥ . ويدل ذلك على ان عادة حمل النارع الجنازة بقيت زمناً في الاسلام .

ويؤخذ من شعر للأفوه الأودي ان الجاهليين كانوا يغسلون موتاهم قبل دفنهم^٦ . وذكر (اليعقوبي) ، انه لما مات عبد المطلب (أعظمت قريش موته وغسل بالماء والسدر . وكانت قريش أول من غسل الموتى بالسدر ، ولف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال ذهب وطرح عليه المسك حتى ستره ، وحمل على

-
- ١ الاغانى (١٢/١٥) .
 - ٢ عمدة القاري (٢٩٣/١٦) .
 - ٣ نهاية الارب (١٣٢/٣) .
 - ٤ صحيح مسلم (٧٨/١) ، « كتاب الايمان » كتاب الروح ، لابن القيم الجوزيه (ص ١٠) « الطبعة الثالثة » حيدر اباد ١٣٥٧ هـ .
 - ٥ طبقات ابن سعد (١١٥/٤) ، « صادر » .
 - ٦ الطبري (٢٨٨/٢) ، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) .

أيدي الرجال عدة ايام إعظاماً وإكراماً وإكباراً لتغيبه في التراب^١ .
 وغسل الجاهليون موتاهم بالخطمي والأشتان^٢ ، وما شابه ذلك من مواد لإزالة
 الأوساخ عن جسم الميت وتطهيره . كما وضعوا الطيب مع الكفن ليطيب الميت
 فيذهب مطيباً الى قبره .

ويحمل سرير الميت الذي وضع عليه على الأكتاف لا يصاله الى قبره ، ويقال
 له (النعش) كذلك . وقد يحمل في محفة ، وقد يحمل على الإبل لا يصاله الى
 قبره اذا كان القبر بعيداً . ويتبارى الأقباء والأصدقاء في حمل نعش الميت احتراماً
 له وتقديراً لشأنه . وورد أن (السرير النعش قبل أن يحمل عليه الميت، فإذا حمل
 عليه فهو جنازة)^٣ .

وذكر بعض أهل الأخبار أن النعش لم يكن معروفاً عند العرب ، وأن أول
 من عمل له النعش (زينب بنت جحش) زوج النبي ، أو فاطمة الزهراء ،
 أي في الإسلام. وقد قلد في ذلك أهل الحبشة الذين كانوا يصنعون نعوشاً لموتاهم^٤ .
 وذكر أن (النعش) في الأصل الذكر الحسن . (إذا مات الرجل ، فهم ينعشونه،
 أي يذكرونه ويرفعون ذكره) . و (النعش شبه محفة كان يحمل عليها الملك
 إذا مرض وليس ينعش الميت . وأنشد للناطقة الديباني :

ألم تر خير الناس أصبح نعشه على فتية قد جاوزوا الحي سائرا
 ونحن لديه نسأل الله خلوده يرد لنا ملكاً وللأرض عامرا

قال : فهذا يدل على أنه ليس بميت . وقيل هذا هو الأصل ثم كثر في
 كلامهم حتى سمي سرير الميت نعشاً . وإنما سمي لارتفاعه ، فإذا لم يكن عليه
 ميت محمول فهو سرير^٥ .

وقد كنى (الأسود بن يعفر النهشلي) عن النعش ، أي سرير الميت بـ (ذي

-
- ١ اليعقوبي (١٠/٢) « النجف » .
 - ٢ تاج العروس (٤٤/٨) ، (غسل) .
 - ٣ تاج العروس (٢٦٥/٣) ، (سرر) .
 - ٤ المعارف (ص ٢٤١) .
 - ٥ تاج العروس (٣٥٧/٣) ، (نعش) ، المخصص ، لابن سيده ، (١٣٠/٦) وما بعدها .

الأعواد) . وسبب ذلك على ما يقوله علماء اللغة أن البوادي لا جناز لهم ، فهم يضمنون عوداً الى عود ويحملون الميت عليها الى القبر وذكر انه أراد بقوله :

ولقد علمت سوى الذي نبأني أن السبيل سبيل ذي الأعواد

لو أغفل الموت احداً لأغفل ذا الأعواد ، وأنا ميت مثله . وذو الأعواد الذي قرعت له العصا ، (غوي بن سلامة الأسدي) ، أو هو (ربيعة بن غناش الأسدي) ، أو هو (سلامة بن غوي) على اختلاف في ذلك . قيل كان له خراج على مضر يؤديه اليه كل عام فشاخ حتى كان يحمل على سرير يطاف به في مياه العرب فيجيبها . وفي اللسان : قيل هو رجل آمن ، فكان يحمل على حفرة من عود ، أو هو جد لأكرم بن صيفي المختلف في صحبته . وهو من بني أسيد بن عمرو بن تميم . وكان أعز أهل زمانه ، فالتحذت له قبة على سرير ، ولم يكن يأتي سريره خائف إلا آمن ، ولا ذليل إلا عز ولا جائع إلا شبع وهو قول أبي عبيدة . وبه فسر قول الأسود بن يعفر النهشلي^١ .

ويحمل الموتى على (الحرج) أيضاً . والحرج خشب يشدّ بعضه الى بعض ثم يحمل فيه الموتى^٢ .

وللعلماء آراء في الجنازة . ذكر بعض منهم ان الجنازة من الجنز بمعنى السر ، وذكر بعض آخر ان اللفظة من ألقاظ النبط ، وتعني جنز في لغتهم الإخفاء ، ويقصدون بالنبطية لغة بني إرم^٣ . معنى جملة (جنز الميت) عندهم ، وضع الميت على السرير وصلاة الكاهن عليه^٤ . وذكر بعض العلماء ان الجنازة بالكسر ، الميت وبالفتح السرير ، وذكر بعض آخر العكس . وذهب فريق آخر الى ان الجنازة الميت نفسه ، لذلك لا تكون جنازة حتى يكون ميت ، وإلا ، فهو سرير أو نعش . فالجنازة على هذا الرأي ، الميت محمولاً على سرير أو نقش ، أو تابوت في الاصطلاح الحديث^٥ . وبهذا المعنى يعبر عن الجنازة في الوقت الحاضر .

- ١ تاج العروس (٢ / ٤٤٠) ، (عود) .
- ٢ المخصص (٦ / ١٣٠) وما بعدها .
- ٣ تاج العروس (٤ / ١٨) .
- ٤ غرائب اللغة (١٧٧) .
- ٥ تاج العروس (٤ / ١٨) ، (جنز) .

وصلاة الجنائز ، هي الصلاة التي تقام على جنازة الميت ، أي الميت وهو في تابوته ، ليرسل الى القبر ، وهي صلاة أقرها الاسلام ، وقد أفرد لها باب في كتب الحديث والفقهاء يعرف به (كتاب الجنائز)^١ .

والعادة عند أكثر الساميين السير بسرعة في الجنازة . فيسرع المشيعون الذين يسرون مع الجنازة الى موضع القبر في مشيهم للوصول بالجنازة بسرعة اليه . وقد أشير الى هذه العادة في كتب الحديث^٢ . والظاهر ان لطبيعة الجو دخل في ظهور هذه العادة .

ويقال لتهيئة الميت ودفنه في القبر (تجهيز الميت) . ويقوم الأبناء والأقرباء بوضعه في لحده . واذا كان الميت عزيزاً كريماً في قومه سيداً رئيساً اشترك الرؤساء في إدخاله القبر ، وقد يتنافسون في نيل هذا الشرف ، وقد يؤدي هذا التنافس الى وقوع الشر بين المتنافسين ، لأن تجهيز الميت ووضعه في لحده من علامات تقدير الميت وتعظيمه ، ومن دلائل قرب من دخل القبر من الميت واتصالهم الوثيق به^٣ .

ويقال للميت عند وضعه في قبره : (لا تبعد)^٤ ، أي انه وان ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم . ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصته مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمونها باسم الميت ، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندهم وضرب الخيام حولها ، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمه وتحيته ، لأن روح الميت في رأيهم حية لا تموت . ولهذا السبب أيضاً كانوا يسقونها بصب شيء من الماء على القبر ، كما كانوا ينضحونه بالدم . وبهذا المعنى يفسر ما ورد في الشعر وفي النثر من سقي الغمام للقبر ، ونزوله عليه ، وما ورد من شرب الخمر على القبر وسكب بعضه عليه . وقد كان العبرانيون يخرجون

١ صحيح مسلم (٢١٩/٦) .

٢ ارشاد الساري (٤٢٠/٢) وما بعدها) .

٣ Hasting, Vol. II, P. 731.

٤ وفي هذا المعنى ورد في شعر مالك بن الربيع المزني :

يقولون : لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد الا مكانيا
بلوغ الأرب (١٤/٣) وما بعدها (الإمالي) ، للقالبي (١٣٧/٣) .

حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى^١ . ويذكر أهل الأخبار ان الناس كانوا يسكبون الخمر على قبر (الأعشى) بـ (منفوحة) الهامة ، وذلك لولعه بها وتقديراً لذكراه .

ويدفن بعض العرب الميت بملابسه ، ويغطي رأسه . ويكفن بعضهم موتاهم ويدفنونهم مكفينين . ويذكر علماء اللغة ان من أسماء الكفن الجن ، واستشهدوا على ذلك بيت للأعشى^٢ . وفي الحديث : (ان ثمود لما استيقنوا بالعذاب تكفنوا بالأنطاع وتحنطوا بالصبر ، لثلا يجيفوا ويتنوا . يضعون الحنوط في أكفان الميت)^٣ . كما وردت كلمة (أكفاني) في بيت لامرئ القيس^٤ ، مما يدل على معرفة الجاهليين للكفن . وقد كان قدماء العبرانيين يدفنون موتاهم بملابسهم التي كانوا يستعملونها ، أي كما كان يفعل قدماء الجاهليين ، ثم كفّن المتأخرون منهم موتاهم بكفن مكون من قماش أبيض مصنوع على الأكثر من الكتان على هيئة البرد اليابني يلف على جسم الميت ، وربطوا الرأس بمنديل ، كما ربطوا يدي الميت وقدميه برباط خاص ، على النسق الذي أقر في الاسلام^٥ .

ويظهر من الأخبار الواردة عن تكفين رسول الله ، ان أهل مكة أو الحجاز عامة كانوا يفضلون الأكفان السحولية ، وهي أثواب بيض سحولية من كرسف، اي من قطن . وقد نسجت في (سحول) ، وهي قرية باليمن منها هذه الثياب . وقد كره الإسلام تكفين الموتى بالمصنعات ونحوها من ثياب الزينة ، كما كره التكفين بالحرير ، بل حرم بعض العلماء التكفين فيه^٦ . وقد كان أغنياء الجاهلية يكفنون موتاهم بالألبسة الغالية ، مبالغة منهم في تقديرهم لمنزلة ميتهم عندهم .

Reste, S. 183. ١

٢ وهالك أهل يجنونه كآخر في أهله لم يجن
اللسان (٢٤٥/١٦) ، تاج العروس (٣٢١/٩) ، المطبعة الخيرية «
المحبر (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٣ اللسان (١٤٨/٩) ، صحاح الجوهري ، (٢١٨٨/٦) المخصص لابن سيده
(١٣٠/٦) وما بعدها) .

٤ اللسان (٢٣٩/١٧) .

٥ قاموس الكتاب المقدس (١٩٩/٢ وما بعدها) .

Ency. Relig., 4, p. 498, Hastings, A Dictionary of Christ. and Gospels,

Vol. I, p. 241.

٦ صحيح مسلم (٢/٧) .

وقد ذكر (يعقوبي) ، أن (عبد المطلب) لفّ في حلتين ممانيتين^١ وكانت البرود الهائية مفضلة على غيرها في التكفين . وذكر أنه كان من المستحسن عندهم الإحسان في الكفن . ورويت أحاديث في تحسين الكفن . منها : « إذا كفن أحدكم أخاه ، فليحسن كفته »^٢.

وذكر أن (التحسب) ، بمعنى التكفين وان لفظة (محسب) بمعنى مكفن . وذكر أيضاً ان التحسب دفن الميت بالحجارة^٣ .

عند وضع الميت في قبره يقوم من يذكر محاسنه وأعماله ، ثم يظهر حزنه وحزن الناس لفراقه ، ويقال لذلك (الصلاة) . وقد أطلق الإسلام على هذه وعلى الندب والأعمال الأخرى (دعوى الجاهلية) ، ونهى عنها^٤ .

ويوارى الميت في حفرته ثم يمال التراب عليه . وإذا كان الميت من أصحاب الاسم والجاه فقد يخصص قبره ويبنى عليه ، ويكتب على قبره اسم صاحبه وما يناسب المقام^٥ . وكثيراً ما نسمع بنحر الإبل أو عقرها على القبور لتبتل بدماء الإبل^٦ . ولا سيما إذا كان الهالك من سادات القبائل والأجواد . وإذا حلقت النساء شعورهن حزناً على الميت ، وضعن شعورهن على القبر^٧ .

وقد اختلف العلماء في سبب عقيرهم للإبل على القبور ، فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للأضياف^٨ . وقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك اعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام . وزعم بعض آخر أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك ، لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت فكأنهم يثأرون لهم فيها . وقيل ان الإبل أنفس اموالهم ، فكانوا يريدون بذلك أنها قد هانت عليه لعظم المصيبة ، وقد نهى الإسلام ذلك بحديث : « لا عقير في الإسلام »^٩ .

-
- ١ يعقوبي (١٠/٢) ، « النجف » .
 - ٢ اللسان (٣٥٨/١٣) ، « صادر » ، تاج العروس (٣٢١/٩) ، اللسان (٢٤٦/١) .
 - ٣ تاج العروس (٢١٣/١) ، (حسب) .
 - ٤ ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني (٤٠٦/٢) .
 - ٥ شمس العلوم الجزء الأول ، القسم الثاني (ص ٢٩١) .
 - ٦ الاغانى (٨٨/١٩) .
 - ٧ الاغانى (١٢/١٥) .
 - ٨ وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح
 - ٩ بلوغ الارب (٣١٠/٢) .
 - ٩ بلوغ الارب (٣١١/٢) .

وإذا وضع الميت في لحده ، أهالوا التراب عليه . وقد ينظم الشعراء شعراً لهذه المناسبة ينشدونه على القبر اظهاراً لحزنهم ولحزن الناس على فراقه .

وطريقة دفن الميت هي العادة الشائعة المعروفة بين الجاهليين ، غير أن هناك من كان يوصي بحرق جثته وذراً رماده في الهواء ، أو بدفن الرماد في الأرض^١ . وطريقة حرق الموتى ليست من العادات السامية أي من العادات المنتشرة بين الساميين إذ يرون أنها تنافي حرمة الميت وأحكام الآلهة . وكانوا إذا سبّوا شخصاً أو أرادوا به سوءاً دعوا له بالحرق ، أو قالوا له يا ابن المحروق .

وقد وجد من فحص القبور التي عثر عليها خارج سور (مأرب) أن من الموتى من دفن على هيئة انسان نائم أي وضع متمدداً في لحده ، كما تفعل في موتانا وأن بعضهم لم يدفن على وفق هذه الطريقة ، ولكن دفن قائماً . وقد عثر في بعض هذه القبور على كتابات قصيرة ، كما عثر فيها على رؤوس منحوتة دفنت مع الميت ، لعلها ترمز الى رمز ديني ، او عقيدة من عقائدهم في الموت ، او تمثل الميت نفسه لتكون شاهداً عليه^٢ .

ولم نعرث على جثث في جزيرة العرب مَحْنَطَة على طريقة المصريين، والذي نعرفه الآن ان الجاهليين كانوا يضعون الخنوط في أكفان الميت وملابسه ليطيب به جسمه ول يحفظه مدة طويلة^٣ . ويظهر من التفسير الذي يرويه علماء اللغة لجملة (عطر منشم) الواردة في شعر (زهير بن أبي سلمى) ، ان (خزاعة) وربما غيرها كانت تشتري (الكافور) لموتها^٤ . وقد كانت قريش تضع الكافور مع الميت ، وهي عادة استمرت في الاسلام أيضاً .

ويقال : إن منشماً امرأة كانت تبيع الخنوط في الجاهلية ، فقييل للقوم اذا تجاربوا : دقوا بينهم عطر منشم ، يراد طيب الموتى^٥ ، مما يدل على ان تطيب الميت عادة جاهلية قديمة ، ويقال لطيب الموتى الخنوط . وقد طرح المسك على

١ النهاية (١١٥/٢) .

٢ BEITRAGE, S. 28.

٣ اللسان (١٤٨/٩) الصحاح ، للجوهري (١١٢٠/٣) .

٤ شرح ديوان زهير لنعلب (١٥) ، (دار الكتب المصرية) .

٥ (١٩٤٤ م) ، ديوان زهير (١١٠) ، (طبعة كرم البستاني) .

٥ المعارف (ص ٢٦٥) .

عبد المطلب لتطيبه^١ ، (وكل ما يطيب به الميت من ذريرة أو مسك أو عنبر أو كافور من قصب هندي أو صندل مدقوق ، فهو كله حنوط)^٢ .

وقيل ان منشماً ، هي ابنة (الوجه) العطاراة بمكة من حمير ، وقيل من همدان ، وقيل من خزاعة وقيل من جرهم . وكانت خزاعة وجرهم اذا أرادوا القتال وتطيبوا بطبيها كثرت القتلى فيما بينهم . وذكر أنهم كانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طبيها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا . وقال (الكلبي) : « جرهمية . وكانت جرهم اذا خرجت لقتال خزاعة خرجت معهم فطبيتهم فلا يتطيب بطبيها أحد إلا قاتل حتى يقتل أو يجرح . وقيل امرأة كانت صنعت طيباً تطيب به زوجها ، ثم انها صادقت رجلاً وطيبته بطبيها ، فلقية زوجها فشم ريح طبيها عليه فقتله . فاقتتل الحيان من أجله . قال الكلبي : ومن قال منشم بفتح الشين فهي امرأة كانت تنتجع العرب تبعهم عطرها فأغار عليها قوم من العرب فأخذوا عطرها ، فبلغ ذلك قومها فاستأصلوا كل من شموا عليه ريح عطرها . وقد ضرب بها المثل في الشر ، فقالوا : أشام من عطر منشم »^٣ .

وورد أن (المنشم) عطر شاق اللدق او شيء يكون في قرون السنبل ، يسميه العطارون (روقا) . وهو سم سوعة . وقيل : ثمرة سوداء منتنة الريح ، أو حبّ البلسان^٤ .

ويجعل الحنوط في مرافق الميت وفي بطنه وفي مربع رجله ومأبضه ورُفْعَيْهِ وعينه وأنفه وأذنيه . يجعل يابساً .

ونظراً لوجود لفظة (حنط) في العربية في المعنى الذي تفهمه من التحنيط ، أي حفظ الجسد ، ولاستعمال الجاهليين (الحنوط) في تجهيز موتاهم ، وهي مواد عطرية ذات رائحة طيبة ولورود اللفظة في العبرانية وفي السريانية (حنوطو) ، نرى أن نوعاً من التحنيط كان معروفاً عند الساميين^٥ . وان لم يكن بالشكل الذي

- ١ اليقوبي (١٠/٢) ، « النجف » .
- ٢ اللسان (٢٧٩/٧) ، « صادر » .
- ٣ تاج العروس (٧٦/٩) ، (نشم) .
- ٤ تاج العروس (٧٦/٩) ، (نشم) .
- ٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) .

J. W. Gibbs, A Hebrew and English Lexicon, London, 1827, p. 201, Smith,
A Dictionary of Bible, Vol., I, p. 545.

كان عند المضرين . ولا يستبعد أن يكون اهل الجاهلية قد مارسوا التحنيط ايضاً ، وذلك بالنسبة الى أغنيائهم واصحاب الثراء منهم . ويؤيد هذا الاحتمال ما رواه اهل الأخبار من عثور الجاهليين وبعض الإسلاميين على جثث عادية كانت محافظة على هيأتها حتى انها تبدو وكأنها دفنت بالأمس ، وما روه من عثورهم على نفائس وأواني وكتابات ، الى جانب تلك الجثث . مما يبعث على الظن بأن تلك الجثث كانت محنطة بطريقة ما .

ولم تستعمل التوابيت المصنوعة من الحجارة في نجد والحجاز . أما في بطرا وتدمر فقد اتخذت التوابيت المصنوعة من الحجر والنواويس^١ .

والتابوت ، هو الصندوق الذي يوضع فيه الميت . ويصنع من الخشب والحجر . أو من مواد أخرى . وهو (تبا) في العبرانية . وقد ذكر بعض علماء اللغة ، ان (التابوه) لغة في التابوت^٢ . والتابوت في الأصل (صندوق من الخشب وقد أشير اليه في القرآن الكريم^٣) .

وقد عرف العرب لفظة أخرى استعملوها في معنى (التابوت) هي لفظة (إران)، ويراد بها صندوق من خشب يوضع الميت فيه^٤ . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان إران تابوت يضع النصارى فيه أموالهم ويدفنونه مع الميت . واللفظة عبرانية، وقد وردت جملة (حمل على إران) ، أي حمل في التابوت^٥ . وذكر علماء اللغة ان (إران) الجنازة ، وخشب يشدّ بعضه الى بعض تحمل فيه الموتى ، وسرير الموتى ، وتابوت الموتى^٦ .

والعادة ان تذكر مناقب الميت عند قبره في أثناء الاحتفال بدفنه اذا كان عظيماً سيداً ، وأن يعجل بدفنه في مقبرة القبيلة أو القرية أو في بيته . وقد كان من

Reste, S. 178. ١

تاج العروس (٣٨١/٩) . ٢

البقره الاية ٢٤٨ ، طه الاية ٣٩ ، اللسان (١٧/٢) « طبعة صادر » . ٣

غرائب اللغة (ص ٢١١) . ٤

المختصص ، (١٣٠/٦ وما بعدها) . ٥

قال الاعشى : ٦

أنرت في جناجن كاران ال ميت عولين فوق عوج رسال
وقال طرفة :

أمون كالواج الاران نسأتها على لاحب ، كأنه ظهر برجد

اللسان (١٤/١٣ وما بعدها) ، (أرن) .

عادتهم دفن الميت في البيوت أو على مقربة منها . أما الأعراب، فقد كانوا يدفنون موتاهم في المنازل التي يكونون فيها ، وإذا كانوا في أثناء رحيلهم دفنوهم على قارعة الطرق ولا سيما على المرتفعات المشرفة عليها .

ويجبل العرب بدفن موتاهم . والتعجيل بدفن الميت من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الجو . فجو جزيرة العرب لا يساعد على بقاء جسد الميت مدة طويلة ؛ وإلا تعرض للفساد ، ولحق الأذى به ولهذا صار من الاستجاب التعجيل بدفن الميت ليس في العرف حسب ، بل من الناحية الدينية كذلك .

ويحلق بعض الجاهليين شعر الرأس كله أو بعضه ويرمونه على القبر . وحلق شعر الرأس أو جزء الناصية أو حلقها أو حلق الضفيرتين من التقاليد القديمة . وكانوا يقومون بذلك إكراماً وتعظيماً لشأن الأرباب ، وعند الحج إلى بيوت الآلهة، فرمون بالشعر أمام الأصنام تعظيماً لها وبياناً عن مقدار احترامهم لها حتى ضحكوا بأعز رمز لديهم في سبيلها ، ولهذا كان لرمي ضفائر شعر الرأس عند القبر أهمية خاصة في نظر الجاهليين^١ .

وكان في روع الأمم القديمة أن الشعر للفرد قوة وحياة ، فحلقه أو جزء جزء منه . معناه تضحية كبيرة وصلة تربط الميت بالحي^٢ .

القبر:

ويدفن الموتى عادة في حفر تحفر يقال لها : قبر ، وجدث ، ومقبر، ووجر ، ورمس ، وجن^٣ . أما في (بطرا) ، وفي بعض المناطق الجبلية والصحيرية ، فقد نقرت المقابر في الصخور ، فصنعت على هيئة حجر وضعت جثث الأموات فيها . كما استعملت المقابر المرتفعة في مدينة (تدمر) ، وذلك بتشييد مبانٍ وضعت فيها جثث الموتى في حجر صغيرة تعمل في تلك الأبنية . واستعملت الكهوف مقابر كذلك . ففي المناطق الصحيرية توجد كهوف طبيعية

1 Muh. Stud. I, S. 247.

2 Ency. Rellig., VI, p. 476.

3 جنن ، ويجمع على أجنان ، اللسان (٢٤٥/١٦) ، Littmann, Safa, p. 69.

سكنها الإنسان ، واتخذها مقبرة له . وذلك بدفن الأموات فيها وسدّها بها . وقد عثر الباحثون والسياح على عدد منها .

والقبر هو التسمية المعروفة الشائعة في أغلب أنحاء جزيرة العرب ، وقد وردت في نص التّارة ، وجمعها القبور . ذكر علماء اللغة ان (القبر) مدفن الإنسان وان (المقبر) موضع القبر . وأما (المقبرة) ، فهي موضع القبور^١ . وقد وردت لفظة (مقبر) و (مقبرت) أي مقبرة ، و (مقبرتم) أي (مقبرة) في حالة التنكير في نصوص المسند^٢ .

وأما (الجدف) فالقبر ، والمجمع أجداث وأجدث، وهو قلة . وورد (الجدف) في بعض الروايات^٣ .

وأما الوجر ، فهو كالكهف عند علماء اللغة^٤ . فهو يؤدي معنى قبر على سبيل المجاز . وقد ورد في نص ملون بالمسند يعود الى القرن السادس للميلاد ، عثر عليه في العربية الشرقية . وهو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا) .

ويذكر علماء اللغة ، ان الجنين : القبر ، سُمّي بذلك لسره الميت ، وأيضاً الميت لكونه مستوراً فيه ، وأيضاً (الكفن) لأنه يجن الميت ، أي يستره ، فالأصل في الكلمة السّره ، ويجمع على أجنان^٥ .

وقد وردت لفظة (ضرح) ، أي (ضريح) بمعنى قبر في اللغة الصّفوية^٦ . ولكن من الجائز أن تكون قد وردت فيها بالمعنى المفهوم من الكلمة في عربيتنا . كما وردت فيها ألفاظ أخرى بمعنى قبر ، مثل : (نفست) أي ، (نفس) ، و (مقل) ، بمعنى (مقيل) ، أي موطن الراحة ومحلها : و (نيت) . ويظهر ان لفظة (نفست) قد أخذت من أصل لإرمي هو (نفا) (نفشا) ،

١ اللسان (٢٧٦/٦) ، المخصص (١٣٠/٦) وما بعدها .
MM8, REP. EPIGR. 3974, CIH 20, 21, F.V. Winnett, « A Monotheistic Hilm-
jarite Inscription », in BASOOR, NUM: 83, 1961, p. 24.

٢ تاج العروس (٥٩٩/٣) .

٣ اللسان (٤٣٣/٣) ، تاج العروس (٦٠٩/١) « المطبعة الخيرية » .

٤ تاج العروس (٥٩٩/٣) ، (وجر) .

٥ تاج العروس (١٦٣/٩) ، المخصص (١٣٠/٦) وما بعدها .

٦ اللسان (٢٤٥/١٦) .

٧ E. Littmann, in Salfatic Inscriptions, Leyden, 1943, p. X.

وقد وردت لفظة (نقش) و (نفس) في النصوص النبطية والحماينة والسبئية وفي نصوص 'دونت بلهجات عريية أخرى' . ولعل لفظة (نيت) ، علاقة بـ (منوت) و (منايا) و (منون) ، وهي تعني في الصفوية : المسافر والسفر أي في معنى أدبي لطيف ، له صلة بالموت ، باعتبار ان الميت مسافر من هذا العالم الى عالم آخر ، وان القبر هو مستقر ذلك السفر .

ويلحد أهل الحجاز لحداً في القبر لوضع الميت فيه . ويقال للميت الذي يلحد القبر ويضع الميت فيه (اللاحد) . ويقال للميت الذي يعمل الضريح (الضارح)^١ .

وكان من عادة الجاهليين رجم القبور أي وضع أحجار فوقها ، وذلك على سبيل التقدير والتعظيم للميت . فإذا زار قريب أو صديق قبر قريب أو صديق له رجمه ، أي وضع أحجاراً فوقه . والرجام الحجارة . والرجمة أحجار القبر ثم يعبر بها عن القبر وجمعها رجام ورجم . وقد ورد في كتب الحديث ان الرسول قال : لا ترجموا قبوري^٢ ، وان (عبدالله بن مغل المرني) قال : (لا ترجموا قبوري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم . وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض)^٣ ، وعدم نصب أحجار فوقه ليظهر واضحاً شاخصاً .

وتؤدي لفظة (رجم) و (رجمت) و (هرجم) أي (الرجم) ، معنى قبر أيضاً . وترد بكثرة في الكتابات الصفوية . ويراد بها الأحجار التي تكوم فوق قبر^٤ . والعادة عندهم أن الشخص الذي يمر على قبر ما ، أو يزور قبر قريب له ، يضع حجراً أو أحجاراً فوق القبر ، تكريماً لصاحبه وتخليداً لذكوره ، حتى وان لم يعرفه ، لأن ذلك من باب احترام الموت والميت . فالرجام اذن ، هي قبور غطيت بأحجار .

وقد عثر على عدد من الرجام المكتوب الذي اتخذ شواخص للقبور فيه اسم الميت ودعاء على من يحاول نقل الرجمة من محلها أو على من يحاول تغيير معالم

١ المصدر نفسه .
٢ تاج العروس (٤٩٢/٢) . (لحد) .
٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ١٨٩) .
٤ اللسان (٢٢٦/١٢) ، (صادر) ، (رجم) تاج العروس (٣٠٤/٨) ، (رجم) ، قاموس المحيط (١١٧/٤) .
Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 15, 20, 23.

القبر وازالته أو على من يريد اتخاذ قبراً له أو لأحد أفراد أسرته أو يدفن أي أحد فيه . وقد أفادتنا هذه الشواهد في معرفة لهجة القوم وفي بعض الأمور التي لها صلة بالأصنام وبالدين .

وقد استعملت الحياينة لفظة (قبر) ومنها (هتقبر) ، أي (القبر) ، للتعبير عن القبر ، كما استعملت لفظة أخرى هي (مثير) (م ث ب ر) ومنها (همثير) ، أي (المثير) في معنى قبراً . وللثبور بالطبع صلة بالموت . وتعبّر لفظة (كهف) في هذه اللهجة عن هذا المعنى أيضاً^٢ .

ويقال للقبر المُسوَّى مع الأرض (رمس) فإذا كان مرفوعاً عن الأرض فهو قبر مسنم^٣ . ويظهر أن الجاهليين كانوا يسمون قبورهم . وقد ورد في حديث (ابن مغفل) : (ارمسوا قبوري رمساً)^٤ . أي سووه بالأرض ولا تجعلوه مسنماً . والرمس تراب القبر والمرمس موضع القبر^٥ .

ووردت لفظة (مقبر) في الكتابات الصفوية ، بمعنى (القبر) ، أي الموضع الذي يقبر به . وهم يرصفون القبر ، ويعبّرون عن ذلك بكلمة (ارضف) . كما يرجمونها بالرجم ويعتبرون ذلك من امارات التقدير والاحترام^٦ .

وعرفت مقابر النصارى بـ (الناووس) . وقد شك بعض علماء اللغة في أصلها ، فذهب إلى احتمال كونها من أصل أعجمي^٧ ، وهي من أصل يوناني ، ومعناها فيها : حجر منقور لدفن ميت ، كما أطلقت على مقبرة النصارى وعلى المعبد والكنيسة ، لأن كثيراً ما كان النصارى القدامى يقبرون موتاهم في الكنائس^٨ .

وقد حارب الاسلام عادة أهل الجاهلية في تسنيم القبور ورفعها عن سطح الأرض ، وشدد على ذلك في الحديث ، وجعلت القبور المسنمة في حكم

١ W. Caskel, Lihyan und Lihjanisch, S. 84.

٢ راجع النصوص : ١ ، ٢ ، ٣٦ ، ٩٣ في المصدر المذكور .

٣ اللسان (٤٠٥/٧) ، (١٩٩/١٥) .

٤ اللسان (٤٠٥/٧) ، تاج العروس (١٦٣/٤) ، النهاية (١٠٩/٢) .

٥ بوزن المذهب ، مختار الصحاح (١٩٨) ، الصحاح ، للجوهري (٩٣٣/٢) .

٦ Littmann, Saf. p. 55, 69.

٧ تاج العروس (٢٦٥/٤) ، (نوس) .

٨ غرائب اللغة (٢٧٠) .

الأوثان^١ . ولا بد أن يكون لهذا التشديد سبب ، إذ لا يعقل ورود تلك الأحاديث في موضوع طمسها بغير داع ولا أساس . وسبب ذلك هو تقديس أهل الجاهلية لتلك القبور تقديسهم الأوثان وتقربهم إليها ، وهو ما لا يتفق ومبادئ التوحيد في الإسلام .

ونهى الإسلام عن تكليل القبور . (أي رفعها تبنى مثل الكلال . وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور . وقيل : هو ضرب الكلة عليها . وهي ستر مربع يضرب على القبور)^٢ . وقد كانوا يبنون البيوت والأبنية فوق القبور . وقد نادى الشاعر (لييد) باني قبر عزيز له بأن يضعف من سمك القبر وأن يرفع الحائط أو السقف ، حتى يكون هناك متسع من فضاء فوق القبر^٣ . وذكر أنه كانت على قبر (أبي أحيحة) قبة مشرفة^٤ .

وقد ورد في شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيد بناء أضرحة فوق القبور ، ورفع القبر عن الأرض حتى يكون كسنام الجمل بارزاً ظاهراً . وقد عبر عن بناء القبر ورفع عن الأرض وبناء ضريح عليه ب (ارتفد الضريح)^٥ والضريح في تعريف علماء اللغة ، الشق في وسط القبر ، وقيل القبر كله أو قبر بلا لحد . وذلك لأنهم يجعلون اللحد في جانب القبر^٦ .

ويظهر أن يهود الحجاز ونصاراه كانوا قد بالغوا في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم وفي تعظيم قبور أحبارهم وقسمهم ، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات . تزار في المناسبات وقد دفنهم في المعابد . لذلك نهى عن التشبه بفعلهم في الإسلام . وأشير إلى عملهم هذا في القرآن الكريم وفي كتب

١ « عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : الا أبعتك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالا الا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته » ، صحيح مسلم (٦١/٣) « باب الامر بتسوية القبر » .
٢ تاج العروس (١٠٣/٨) ، (كلال) .
٣ شرح ديوان لييد (ص ٢٩٢) .
٤ أنساب الاشراف (١٤٢/١) .
٥ سناما يرفع الاحلاس عنه الى سند كما ارتفد الضريح ديوان بشر (ص ٥٠) .
٦ اللسان (٥٢٦/٢) . مختار الصحاح (٧٣) ، تاج العروس (١٨٧/٣) ، اللسان (٥٢٦/٢) ، المخصص (١٣٠/٦) وما بعدها .

الحديث . وقد وضع اليهود والنصارى شعار اليهود والنصارى على قبورهم لتمييزها عن مقابر الوثنيين^١ .

ويقال للحائر الذي يحيط بالقبر (الودع) . وقيل : الودع القبر ، أو الحظيرة حوله ، أو المدفن يحير به حائر^٢ .

وتعرف علامات القبر ومعالم حدوده بـ (الآيات) ، والآية هي العلامة^٣ . وقيل للرجات التي وضعت على القبر الأحجار والأطباق والصفائح والصفائح^٤ . ويراد بالصفائح الحجارة العريضة التي توضع على القبر لتغطيته^٥ .

وكان منهم من يضع الجريد على القبر ، ومنهم من يضعه داخل القبر^٦ . وقد تغرز الجريدة في القبر فيكون رأسها بارزاً فتكون علامة تشير الى القبر. وذكر أن رسول الله أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة^٧ . ولا زال الناس يتبعون هذه العادة . وقد استعملوا الأذخر والحشيش في قبورهم كذلك . كانوا يضعون الأذخر في الفرج التي تكون بين اللبنت، ويضعون الحشيش تحت الميت وفوقه^٨ .

وعثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر دعاها الباحثون : (تمولي) Tamuli لأنها على شكل تلال أو هضاب . وقد اتخذت مدافن . منها (تمولي) البحرين . وسأحدث عنها في أثناء حديثي عن الفن والعمارة عند الجاهليين .

وقد عثر المتقون على مقابر جاهلية عامة ، على نحو ما نجده من المقابر العامة في هذا الوقت . وقد نبش عدد منها في الاسلام ، لاتخاذها أملاكاً أو مساجد ، كما حوّل بعضاً منها الى مقابر اسلامية، دفن فيها المسلمون بعد أن أزيلت ونبشت قبور الجاهليين. وأشار إليها في كتب الحديث. ويظهر ان بعضاً منها كان ذا أضرحة وقبور مرتفعة عن الأرض^٩ .

-
- ١ ارشاد الساري (٤٢٩/١) .
 - ٢ تاج العروس (٥٣٧/٥) ، (ودع) .
 - ٣ تاج العروس (٢٦/١٠) ، Muh. Stud. I, S. 233, Noldeke, Beiträge, S. 99.
 - ٤ Muh. Stud., I, S. 233.
 - ٥ تاج العروس (١٨١/٢) .
 - ٦ ارشاد الساري ، للقسطلاني (٤٥٢/٢) وما بعدها) .
 - ٧ المصدر نفسه .
 - ٨ ارشاد الساري (٤٤٢/٢) وما بعدها) .
 - ٩ ارشاد الساري (٤٢٩/١) ، (٤٣٧/٢) .

ولا يدفن في المقابر إلا أفراد العائلة التي تمتلكها ، أو من يؤذن بدفنه فيها .
ويعد الإذن بدفن غريب في مقبرة خاصة من علامات التقدير والاحترام بالنسبة
للمتوفى الغريب . وقد تحجز مناطق من مقبرة عامة لتكون مقبرة خاصة ، فلا يسمح
لأحد بالدفن فيها إلا للمالكها . وقد تسور ويعمل لها باب ، وقد يقام ضريح أو
بناء ضخمة ، مع ان المقبرة هي جزء من مقبرة عامة . ولا تزال هذه العادة متبعة
وقد تشتري الأرض ممن يتولى أمر المقبرة العامة . ويحافظ أهل المقابر الخاصة على
مقابر أسرهم فيتعهدونها بالرعاية والعناية ويادامتها على خير وجه . وهي تزار في
المناسبات تقرباً الى أصحاب القبور ، لئلا تنقطع صلتهم بموتاهم . وورد ان بعضاً
من الجاهليين كان يضرب قبة على قبر عزيز له مدة سنة (للاستمتاع بقربه وتعليلاً
للفس وتخيلاً باستصحاب المألوف من الأانس ومكابرة للحسن . كما يتعلل بالوقوف
على الأطلال البانية ويحاطب المنازل الخالية)^١ .

وتراعى القرابة والمترلة في دفن الموتى في المقابر فتدفن الزوجة على مقربة من
زوجها في الغالب والابن على مقربة من أبيه ، وهكذا فكأنهم يريدون بذلك جمع
شمل العائلة ، وإعادتها الى ما كانت عليه يوم كانوا أحياء . وإذا كان المتوفى
عظيماً وذا مكانة ومترلة حرص أقرب الناس اليه من أصحابه على نيل شرف الدفن
على مقربة منه عند دنو أجلهم . وقد تتحول أمثال هذه المقابر الى مزارات ،
خاصة اذا كانت مقابر كهنة وسدنة ورجال دين .

أما قبور الأعراب والفقراء والسواد ، فهي بسيطة ، حفرة تحفر في الأرض
يواري فيها الميت ، ثم يهال عليه التراب أو الرمال أو الحجارة حسب طبيعة الأرض
فتكون قبر ذلك الميت . وقد يسوى القبر بالأرض فلا تظهر آثاره ولا تبرز معالمه
عن معالم القشرة ، وقد يرفع التراب بعض الشيء ليكون علامة عليه . وقد توضع
عصي أو أحجار فوقه لتكون إشارة تشير الى مكانه . وليس في إمكان الأعراب
النازلين في البوادي البعيدة عن الحضرة ، فعل غير ذلك ، ولا سيما اذا كان الموت
قد وقع في حين نزول القبيلة في أرض جاءت اليها في الموسم لترعى العشب أو في
أثناء تنقل فإنها لا تستطيع أن تصنع قبراً لميتها غير هذا القبر .
ومدة العزاء عند الجاهليين حول^٢ ، أي سنة لا يترك أهل الميت فيها ذكرى

١ ارشاد الساري (٢/٤٢٩ وما بعدها) .

فقيدهم ، فيندبونه في أوقات معينة ويبيكون عليه عند قدوم قادم اليهم ، وينحرون لذكراه ويكرمون من يأتي اليهم لتعزيتهم^١ . وقد كانت مدة العزاء حولاً عند العبرانيين أيضاً وعند غيرهم من الساميين والشعوب الأخرى ، يقوم فيها أبناء الميت أو بناته بتلاوة صلوات خاصة في خلالها على الميت ليرحمه الله وليغفر له ويسعد روحه^٢ . وتكاد هذه المدة تكون أمداً للعزاء ولذكرى الميت عند كل الشعوب الى هذا اليوم .

وأما مدة المناحة فهي في العادة سبعة أيام . فلما مات (زيد الخيل) ، الشاعر الفارس ، وهو في طريقه الى دياره ، أقام (قبيصة بن الأسود) المناحة سبعة أيام^٣ . ولا تزال هذه المدة مرعية في العراق ، حيث تنوح وتبكي النسوة فيها موتاها ، ويكون اليوم السابع هو ختام العزاء . أما الرجال ، فيقيمون العزاء ثلاثة أيام ، ويسمونه (الفاتحة) في الإسلام بالعراق في هذه الأيام . ويجلس أقرباء الميت وأهله عند العبرانيين سبعة أيام في البيت حزناً عليه وتقبلاً لتعازي الناس . وقد ورد أن مدة النياحة قد تستمر عند الجاهليين فتكون حولاً^٤ .

ملابس الحزن :

ويلبس أهل الميت وأقرباؤه ملابس الحزن مدة العزاء أو حولاً كاملاً. واللون الأبيض والأسود هما اللونان اللذان تتخذ منها الملابس في الحزن ، فقد لبسوا الملابس البيض ، ولبسوا الملابس السود ، وما زال اللونان شعاريّ الحزن حتى الآن . فاللون الأبيض هو شعار الحزن في الحجاز والشأم ، أما الأسود ، فهو شعار الحزن في العراق .

وحداد المرأة على زوجها حداد صعب عسير ، عليها في هذه المدة الإمتناع عن الزينة والطيب امتناعاً تاماً ، ويقال لها في هذه الأثناء (الحادة) لأنها حدت على زوجها، وفي خلال الحداد يمتنع الخطاب من خطبتها والطمع فيها حتى تنتهي منه^٥.

١ بلوغ الارب (١٢/٣) .

٢ Isidore Epstein, Judaism, p. 178.

٣ الاغانى (٤٨/١٦) .

٤ اللسان (٢١٦/٣) .

٥ أعمدة القاري (٢/٢١ وما بعدها) .

وفيه من بعض روايات الأخباريين أن من عادة الجاهليين حجز المرأة عند وفاة زوجها في بيت صغير ، قد يكون خيمة أو بناء يسمونه (الحفش) ، لتقضي فيه مدة العدة . فإذا كانت في هذا البيت ، لبست شرّ ثيابها ، وامتنعت عن الطيب وعن تزيين نفسها مدة عام^١ . فإذا انتهت المدة افتضت عديتها (بمس الطيب أو بغيره كقلم الظفر أو نتف الشعر من الوجه أو دلكت جسدتها بدابة أو طير ، ليكون ذلك خروجاً عن العدة . أو كان من عادتهم أن تمسح قبيلهنها بطائر ، وتنبذه فلا يكاد يعيش)^٢ .

وتصف رواية أخرى دخول المرأة الحفش وخروجها منه على هذه الصورة : « كانت إذا توفي زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها حتى تمرّ بها سنة ثم تؤتى بدابة ، شاة أو طير فتفتض بها ، فقلبا تفتض بشيء إلا مات . ثم تخرج فتعطي بعة ترمى بها ... » . وجاء : « كانت لا تغتسل ولا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تتنف من وجهها شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يكاد يعيش »^٣ .

ومن عادات بعض الجاهليين ضرب القباب على قبور موتاهم أياماً أو أشهراً قد تبلغ عاماً ، يقيم فيها نساء الميت أو ذوو قرابته ، ليجاوروا الميت ، وليستقبلوا فيه من يفد لزيارة القبر^٤ . واعتقادهم بإحساس روح الميت بوجودهم هناك وبمجئهم إلى القبر لمؤانستهم له هو الذي حملهم ، ولا شك ، على ضرب هذه القباب وعلى مجاورتهم لتلك الأجداث . ومن هذه القباب المؤقتة ظهرت الأضرحة الثابتة ذات القباب السامقة الشامخة ، كما أن من المعابد المثقلة ، أي الخيام المقدسة ، نشأت المعابد الثابتة عند العبرانيين وعند الجاهليين وعند غيرهم من الشعوب .

ومن عادة الجاهليين إسالة دم الذبائح على القبر أو تضربحه بتلك الدماء . فيعقر على قبور الموتى ، وعند إهالة التراب على الميت ، وقد يعقر على القبر كل عام وفي أثناء المناسبات إذا كان الميت من السادة المشهورين المعروفين بالحصول الحميدة كالشجاعة والكرم . وفي الشعر الجاهلي والأخبار أسماء أناس كانوا من المشاهير في

١ تاج العروس (٣٠٠/٤) ، اللسان (١٧٤/٨) وما بعدها .
٢ تاج العروس (٧٠/٥) ، صبح الاعشى (٤٠٣/١) .
٣ تاج العروس (٧٠/٥) ، نهاية الارب (١٢٠/٣) .
Muh. Stud., I, B. 257.

إياهم ، جرت العادة بأن تدبج الذبائح عند قبورهم إكراماً لهم . وقد بقيت هذه العادة الجاهلية خالدة حتى اليوم مع إبطال الاسلام لها بحديث : « لا عقر في الاسلام »^١ . وليس من الضروري أن يكون أصحاب العقائر من ذوي قرابة صاحب القبر أو من قبيلته . ومن هذه القبور قبر (ربيعة بن مكدم) من (بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة)^٢ . وكان الناس يعقرون على قبره . ويظهر من شعر الحسن بن ثابت قاله لما مرّ بقبره ، أن قبره كان قبراً منبياً بني من حجارة حرة^٣ .

والعادة في العقر ، عقر قوائم الدابة ، وقد تعقر الدابة ثم تدبج ، والغالب ان تكون الدابة جملاً أو ناقة ، ولكن بعضهم كان يعقر شاة كذلك ، وذلك اذا كان أهل الميت من طبقة ضعيفة ، يصعب عليها عقر جمل أو ناقة . وقد ورد النهي عن ذلك في حديث آخر هو : « لا تعقرن شاة أو بعيراً إلا لما كله »^٤ . وقوم كان يحبسون ناقة الرجل وذلك بأن يشدوا الناقة الى قبر الرجل ، ويعكسو رأسها الى ذنبها ، ويغطو رأسها بوليّة ، وهي البردعة ، وترتبط برباط وثيق حتى لا تهرب ، فإن أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ، واذا بقيت على القبر ، فإنها تبقى في حفرة لا تعلق ولا تسقى حتى تموت عطشاً وجوعاً ، ويقال لهذه الناقة السيئة الحظ البليّة . ويزعمون أنهم انما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها في المعاد ، ليحشر عليها فلا يحتاج أن يمشي . قال أبو زيد :

كالبلايا رؤوسها في الولايا مائحات السموم حراً الخلود^٥

ووجدت في قبور الجاهليين أشياء مما يستعمله الإنسان في حياته مما يدل على أنهم كانوا كثيرهم يدفنون مع الموتى ما يشعرون ان الميت قد يحتاج في حياته الأخرى اليه^٦ . أما الأعراب فلا تتصور أنهم كانوا يدفنون مع الموتى أشياء ثمينة

١ « لا فرع ولا عتيرة » الحديث رقم ٦ ، ٧ . من أحاديث كتاب العقيقة ، صحيح البخاري .
٢ بلوغ الأرب (١٢٥/٢ وما بعدها) . Muh. Stud. I, S. 241. .
٣ نفرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب بلوغ الأرب (١٢٥/٢) .
٤ اللسان (٥٩٢/٤) .
٥ النهاية ، لابن الأثير (٩٥/١) ، نهاية الأرب (١٢١/٣) .
٦ Reste, S. 180.

لفقرهم وبساطة معيشتهم . وقد عُثِر في مقابر أهل العربية الجنوبية مثل اليمن وحضرموت على حليّ وأحجار نفيسة وأمثال ذلك مما دفنه أهل تلك البلاد مع موتاهم ، ليتزينوا بها في العالم الثاني .

وتؤيد روايات أهل الأخبار عن فتح القبور في الإسلام بحثاً عن الغنى والمال ، ما ذكرته من احتمال وجود رأي عند عرب ما قبل الإسلام ، بأن الميت سيحتاج إلى هذه الأشياء التي دفنت معه ، وأنه سيستفيد منها في عالمه الثاني الذي رحل إليه . ولكني لا أستبعد احتمالاً آخر ، قد يكون أهل الجاهلية قصدوه من دفن الذهب والفضة من حلي أو سبائك أو صفائح مكتوبة مع الميت ، هو رغبة أهل الميت في اظهار شعور الود والمحبة نحو ذلك الميت ، بدفن تلك النفائس العزيزة معه ، لاطهار أنفسهم لا يبالون بها بعد فقدهم عزيزهم الميت ، وأنهم يريدون دفن كنوزه معه ، تعففاً عنها وإزدراء بها . وقد ورد في بعض الأخبار أن امرأة ماتت ، فدفنوها مع متاعها^١ .

ولصيانة القبر وبقائه على حاله أهمية كبيرة عند الجاهليين ، تتجلى في الجمل التي دَوَّنوها على شواخص قبورهم ، هذه الشواخص التي عُثِر عليها السياح والباحثون في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وهي تتطلب إلى الآلهة بأن تنزل الآلام والأمراض والعاهات بمن يتجاسر فيقتل شاخص القبر من مكانه ، أو يكسره ويأخذه ليستعمله ، أو ما شاكل ذلك^٢ . وجملة (عور لذ عور سقر) أي (عور للذي يعور الشاخص) ، أو جملة (وعور دشر وخبل) ، أي عمى وجنون (خبل) من الإله (ذو الشرى) ، على من يحوّر هذا الشاخص ويغيره أو يأخذه ويغيره لغرض ما^٣ ، وأمثالها ، هي من العبارات المألوفة التي نقرأها بكثرة على شواخص القبور .

ومن الطبيعي أن نجد هذه العبارات وعبارات أخرى أشد منها مدونة على تلك الشواخص ، راجية من الآلهة أن تنزل عقابها على من يحاول التطاول على حرمة

١ اللسان (١٢ / ٤٨٤) ، « صادر » ، (قسم) .

٢ South Arabian Inscriptions, p. 53. Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 33.

٣ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol I, 1951, p. 27.

القبر يدفن غريب فيه. ويظهر من هذه العبارات ان من الجاهليين من كان يتناول على القبور ، ولا سيما القبور المنحوتة والقبور الجيدة المبنية على شكل غرف ، وأضرحة ، فيدفنون موتاهم فيها ، وبذلك تدخل جثث غريبة في تلك القبور ، أو يحولوا تلك المقبرة القديمة الى مقبرة جديدة . وقد يزيلون معالمها تماماً ، أو يدفنون أمواتاً فوق أموات على نحو ما تفعل اليوم في المقابر القديمة المشهورة المقامة حول الأولياء ، حيث تتحول المقابر القريبة من الولي الى مقبرة قد ترتفع من كثرة ما يدفن عليها ، حتى تكون مرتفعاً عن ظاهر الأرض .

وتزار قبور السادات والأشراف ، وخاصة قبور كبار سادات القبائل ، ويذبح عندها ، ويحلف بها ، ويلجأ اليها طلباً للأمان والسلامة ، فلا يستطيع أحد التحرش بمن التجأ الى صاحب القبر ولا ذويه . وقد هجا (بشر بن أبي خازم الأسدي) (أوس بن حارثة) من (آل لأم) ، فكان في جملة ما قاله في هجائه :

جعلتم قبر حارثة بن لأم إلهاً تحلفون به فجوراً

وحارثة بن لأم صاحب القبر ، هو أبو أوس المهجوا .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور سادات جاهليين كان الناس يقدون اليها ، ويعظمونها ، ويلوذون بها ، ويطوفون حولها ، منها قبر (تميم) بموضع (مر الظهران) ، وقبر (عامر بن الطفيل) ، وقد وضعوا الأنصاب حول القبر لتكون علامة له ، فلا يدخل الساحة التي يكون فيها القبر الى موضع الأنصاب حيوان أو راكب ولا يهتك حرمتها انسان . كذلك كان الناس يحلقون شعورهم عند مثل هذه القبور ، كالذي كانوا يفعلونه عند الأصنام^٢ .

وقد حجت قبائل قضاعة الى قبر كان على مرتفع من الشجر ، زعم أنه قبر جد قبائل قضاعة^٣ . وكانت أمثال هذه القبور ملاذاً يلوذ بها أصحاب الحاجات ، كما قصدها الشعراء لانشاد قصائدهم في مدح صاحب القبر والتغني بمجده وبمجد

١ ديوان بشر (ص ٩١) .

٢ Reste, S. 184, Muh. Stud. I, S. 231, Smith, Dictionary p. 19.

٣ Muh. Stud., I, S. 231, 235.

قبيلته . ولها حمى حكمه حكم الحمى الذي يحيط ببيوت الأصنام . ويقسم بهذه القبور
ويحرق أصحابها ، كما يقسم بالأجداد ، ويعد هذا النوع من القسم يمينا لا يجوز
الكذب فيه ، وهو كالإيمان المغلظة التي يحلف بها الناس ويذكرون فيها الآلهة
وأسماء الأصنام .

وفي كتب الحديث أن النبي نهى عن الحلف بالآباء والأجداد وبترتهم ، لأن
ذلك من عمل أهل الجاهلية . وقد كانت قريش تحلف بأبائها وأجدادها فتقول :
«أبي أفعل هذا ، أو وأبي لا أفعل وحق أبي أو تربة أبي أو تربة جدك ،
ونحو ذلك . وهي إيمان من إيمان الجاهلية نهى النبي عنها^١ .

عمدة القارىء (٢٩٢/١٦) ، Muh. Stud. I, S. 229 .